مُثقَّفُو الخراب

تحجيم الوعي – تكثيف الوهم

مثقفو الخراب.. تحجيم الوعي- تكثيف الوهم

أسعد الأمير أحمد (باحث من سوريا)

الطبعة العربية الأولى 2022.

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: م. سجود العناسوة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-516-7

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022 /6 /3009)

811.9

الأمير أحمد، أسعد ملحم

مثقفو الخراب: تحجيم الوعي-تكثيف الوهم. أسعد ملحم الأمير أحمد: الآن ناشرون وموزعون، 2022

(128) ص

ر. إ: 3009/ 6/ 2022

الواصفات: علم الاجتماع الثقافي/ / علم الاجتماع السياسي/ / المثقفون/ / الثقافة السياسية

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

أسعد الأمير أحمد

مُثَقَّفُو الخَرَاب

تحجيم الوعي – تكثيف الوهم

دراسة

أمير، ريتا

هذه الحياة تُعاش مرة واحدة ،
فامضيا إليها وكأنكما باقيان إلى الأبد

فهرس المحتويات

مقدّمة..... 9

الحقيقة المطلقة..... 13

المثقف. . مَنْ؟ ولماذا؟..... 23

المثقَّف، السُّلطة، الإعلام..... 51

الإنترنت والقرية الصغيرة..... 64

المثقف، السياسة، التبرير والتخوين..... 73

محنة المثقف (استبداد الأفكار)..... 86

صناعة المثقف..... 94

الوهم يربح دائماً..... 104

مَن الذي يحكم على أفكار المثقف؟ ومَن يحاكمه؟..... 120

المصادر والمراجع..... 125

مقدّمة

لطالما كانت الأفعال الدنيئة تُرتكَب باسم الأفكار والكلمات النبيلة، وإنَّ أعظمَ تَجَلٍ لهذه العبارة إنما يكون في أوقات الحرب في هزَّات المجتمع العنيفة، حيث تغدو الكلمة والفكرة سلاحًا أمضى من حَدِّ السَّيف وطلقة البندقيّة، غالبًا تُكون الكلمة السبب في رقيّ الأمم وقد تكون السبب في الوصول إلى الحضيض وإنْ لَم تفتحِ الحربُ بابَ الأسئلةِ المُربكةِ على مصراعيه كانت نُكوصًا حضاريًا لأي مُجتمع تستَعر فيه، وعبثًا وانتصاراً للوهم، ومآل التجربة أن تتكرَّر ثانيةً بطريقة أقسى، ما من حربٍ إلا وكانت مخاضًا لولادة قِيمٍ وأخلاقٍ جديدة باعتبار الأخلاق قيمة ثابتة، لكنَّ مفهومَها يتغيرُ دائمًا وتنتظر أن يفتَحَ لها التاريخُ بابًا لتدخلَه بحُلَّةٍ جديدة قد تكون جيدة أو رديئة، وإنْ كان ما يرويه لنا التاريخُ من قصص تجنح لأن تقول بأن الأخلاق إثر الحروب لطالما كانت رديئة، والرداءة هنا بمعنى الابتعاد عن الخير العامِّ للخير الخاص، والابتعاد عن الضمير الإنساني للضمير الشخصي، فأغلب الشعوب قَصداً أو انفعالاً جنحَت لكي تكون مُجرمة إثْرَ الهزَّاتِ العنيفة التي تعرَّضت لها، فبُرِّرَتْ أو غُضَّ الطَرْفُ أو نُسيتْ مذابحُ كاملة في الأزمنة كافة؛ كالمذابح التي ارتكبها روبسبير باسم الثورة الفرنسية دون أن يرنوَ الثوارُ لفكرة العدالة وما اقترفته قبله محاكمُ التفتيش بحق مخالفيها، تتأتى هذه الأخلاق

والإبادات والجرائم التي تُرتَكَبُ دون أدنى شعور بالعار من فكرة الحقّ المطلَق التي تسيطرُ على الأذهان أو الحقيقة التي يَدَّعي امتلاكَها العقلُ البشريُّ.

من هنا يأتي دورُ الأبطال الحقيقيون (المثقفون) الذين يتأتى عليهم واجبُ الدفاع عن الحقيقة أيًا تكن تلك الحقيقة دون الخشية من حاكم أو جمهور، دون الخشية إلا من ضميرهم الإنساني الذي يتبعوه كما فعل سارتر حينما عارضَ فرنسا في الجزائر، وكما فعل فولتير بقضية جون كالاس، وكما فعل زولا بقضية دريفوس.

بالعودة للجذر اللغوي للمثقف نعلم ما يُمكن أن تعنيه هذه الكلمة، فثقَّف الشيءَ أقامَ المعوجَّ منه وسَوَّاهُ، وثقَّفَ الإنسانَ أي أدَّبَه وهذَّبَه وعلَّمَه، وهنا يبدو أن للمثقَّف مهمَّة إنسانيَّة نبيلة ينبغي أن نعلمَ ما هي صفاته، ولماذا وجوده ضرورة لمجتمعه، وماذا يُمكن أن ينتُج عن غيابه أو تغييبه أو تطفُّل الآخرين على وظيفته، وإذا علمنا أن فئةَ المثقفين لطالما كانت حاضرة منذ تشكُّل ونشوء أولى الدول والأمم، وقد اختلفت صفاتها وأشكالها لكنها لم تغِبْ يومًا عن الواقع والسياسة والناس، فإن جوهر ما سيتلو هذه المقدمة إنما هو محاولة مواجهة التزوير الذي تتعرض له هذه الفئة من قِبَلِ أشخاص يرتدون ياقَةَ الثقافةِ ويرتدون لباسها ويمارسون التمويه والكذب لمنافع شخصية أو لغايات، فكان واجبًا إظهار عُرْيِهِم واضحًا وجَليًّا مهما حاولوا ارتداء ذلك الثوب الأنيق الذي

ساهمت في حياكته وسائل الإعلام التي تعمل وفق أجنداتها الخاصَّة وأجندات مموليها.

إنَّ كُبرى وسائل الإعلام كانت تلهثُ خَلفَ مُفكِّر وكاتب كي يعتلي منبرها وتستضيفه أو يكتُب فيها لأنه كان يعطي قيمة للوسيلة الإعلامية التي تستقبله، لكن حينما تبدلت الأدوار وصار الظهورُ في وسيلة إعلامية قيمةً للضيف وإشهارًا له، تطفَّلَ الكثيرُ على مهنة المفكر والسياسي والباحث والمحلّل والكاتب والمُثقَّف، وعزَّزَ هذا الأمرَ السرعةُ الهائلةُ التي سيطرت فيها وسائلُ التواصل الاجتماعي والشبكة العنكبوتية على العالَم بأسره، هذا العالَمُ الذي سيطر على غالبه التقوقعُ في خنادق فكرية معيَّنة، فصار الكثيرُ من الكُتَّاب مشهورين ليس بسبب كتبهم وأفكارهم، بل بسبب مواقفهم السياسية مثلاً أو الاجتماعية دون أن يعُوا حتى هم كيف آلت الأمورُ إلى ما آلت إليه، وكيف تعزَّزت شهرتُهم فضلاً عن أنَّ عصرَ السرعة قد وصلَ إلى القارئ فصار يُضيرُه أن يرى مقالاً طويلاً، وصارت السرعةُ مطلوبةً حتى في النَّصِّ، فأقصرُ النصوص أكثرُها قراءة.

إن الحقيقة نسبية وما محاولات القبض عليها إلا كمحاولات القبض على الماء في كَفِّ اليد، ولذلك فإن التحيُّز للفكرة واعتبارها حقيقة مُطلقة قد تودي بصاحبها ليصيرَ سجينًا لها دون أن يدري أنها توجهه في نشاطه وعمله وحياته ومواقفه والناس الذين يتبعوه، ولذلك قد تغدو الأفكار أحيانًا سجونًا وليست آفاقًا، سجونًا تدعمُها الإيديولوجيات والسياسة

والمجتمع والإحباط واليأس ومعامِل صناعة المثقفين، أجل صار خلقُ المثقَّف صنعةً كصناعة مُطربٍ أو مُطربةٍ لا يمتلكان من أداء الطَّرب إلا النَّذْرَ اليسير، يُسهِم بها الكثيرُ من العوامل ربما كان من أهمِّها التَّوقُ للشُّهرة للبعض والحاجة للتسويق للبعض الآخر، بحيث صارت الشُّهرةُ هدفًا لبناء العلاقات مع نُخَبِ المجتمع، أو أصحاب النفوذ، ووسيلة للتكسُّب والانتفاع، والسُّلَّمُ الذي يقود إليها يكون الوهمَ.

والآن تبدو المهمَّة واضحةً وهي التفريق بين مَن يتبع العقل والضمير الإنساني الباحث دومًا خلف الحقيقة وبين مَن يتبع انفعالاته وعواطفه وأهوائه أو أهواء الآخرين، وتعرية من يُسَوِّقُ لهم على أنهم وُعَّاظُ البَشَر ذوو كفاءاتٍ غيرِ معتادة، وأفكار حداثية، وأخلاق عالية، وكذلك إظهار معنى المثقَّف الذي نحتاجه، ذاك الذي لا يتبع سوى الضمير الأخلاقي اليَقِظ في كلِّ أحداث الحياة، وفي أيّ بقعة جغرافية كانت، وفي أيّ زمان لا يخشى جمهوراً أو حكَّامًا، يحيا بالقلق، ويُقلقُ الآخرين بسعيه الحثيث نحو الحقيقة، فلا يُدينُ فعلاً غيرَ أخلاقي في مكان، ويمارس التمويهَ والتبريرَ على فعلٍ غيرِ أخلاقي في مكان آخر، لا يسعى لرضا الآخرين عنه بقَدْر سعيه لرضاه عن ذاته القلقة.

الحقيقة المطلقة

تبدو المعرفة طريقًا للأخلاق وللبحث عن معنى لكلّ شيء في الحياة، وهذا الأمر لا يعني بأنَّ كلَّ قارئ أخلاقيٌّ أو أنَّ كلَّ جاهلٍ غيرُ أخلاقيّ، إنما هي وسيلة من عدَّة وسائل للارتقاء بالفكر عن طريق نضوج العقل ليصبحَ أقدرَ على تمييز الصواب من الخطأ، ليصبح قادراً على تفكيك أيّ معلومة تأتيه دون الانخراط بها حتى النهاية، وذلك إعمالاً لقاعدة ابن خلدون بأنه يجب إعمال العقل في الخبر، ولذلك فإنّ المعرفةَ هي وسيلةُ إعمال العقل في كلّ أمر، لا الاستسلام لفكرة الآخرين والانسياق وراء الأفكار التي تُقدَّم جاهزةً كحقائق مُطلَقة مُقدَّسة يُمنَع المَسَاس بها، وإن في إعمال العقل ارتقاءً بالفكر يجعلُ الإنسانَ أكثرَ أخلاقًا على الصعيد العام والخاص، ولكن لا يغيبُ عن البالِ أنّ المعرفةَ بالنسبة للبعض أصبحت وسيلةً للتداول بالشأن العام والانخراط بتدعيم وجهة النظر لا مجالاً لاتّباع الحقيقة، بحيث صارت المعرفةُ وسيلةَ هجومٍ على فكرة، ودفاعٍ عن أُخرى لا منهجَ حياة.

إذا افترضنا أنّ الإنسانَ ذئبُ الإنسانِ كما ادَّعَى هوبز وأنه قائمٌ على التنازع والتعارض كما قال د. علي الوردي فكيف السبيل لتهذيبه وتقويم سلوكه؟ هنا يغدو القانونُ الوعاءَ الأولَ الذي عليه عِبءُ احتواء السلوك الطبيعي للإنسان، والذي تمثَّلَ في التاريخ القديم بقانون العشيرة والقبيلة

والعُرْفِ الاجتماعي، ولكن هل يكفي القانونُ لردع الإنسان عن عودته للحالة الأولى؟ للفطرة المتوحشة؟ بنظرة سريعة لتطور المجتمعات نجد أن القانونَ وحدَه غيرُ كافٍ لذلك، إنّما لابدَّ من نشر ثقافته بحيث لا يغدو الخوفُ من النصِّ هو المُتحكِّم، بل ثقافته هي المُسيطرة، وهذا الكلام أشدُّ ما يظهر تجليّه في الحروب حين تنتفي القوانينُ ويظهر مدى تأثير الثقافة والأخلاق، فمثلاً حينما تنازلَ الإنسانُ عن جزء من حقوقه الطبيعية لصالح الدولة إنما فعَلَ ذلك تحقيقاً لخير أعظم وهو الحماية التي سيحصل عليها من الدولة، ومنع القوي من الاعتداء عليه، ومنعه من الاعتداء على حقوق الغير، وهكذا وُلِدَت فكرة العَقْد الاجتماعي وتكرست في الضمير الإنساني، ومن المستحيل الآن -رغم كلِّ الانتقادات التي تطالُ تنظيمَ الدُّولِ ديمقراطيةً كانت أم استبداديةً، سواء من الناحية البنيوية أو الحقوقية- أن تجِدَ شخصاً يُطالِبُ بالعودة للحياة الأولى والتخلّي عن فكرة الدولة خاصَّة بعد المكاسب الحقوقيَّة التي حصل عليها.

فلننظر ببساطة لشعور الفرد في سورية مثلاً إزاء الضرائب التي من الواجب سَدادها للدولة، إن الفرد يسعى بشتى الأساليب للتهرُّب منها، أو تخفيضها رغم وجود قوانين نصَّت عليها، وذلك لأنها تمسُّ خيرَه الخاص ولا يعتقد بأن ما يدفعه واجب عليه لأسباب عديدة من بينها شعوره بالغُبْن مقارنة بغيره ومن بينها عدم ثقته بكفاءة النظام الضريبي

وآلية إدارته، ومنها أيضاً وهو ما يعنينا في هذا المثال أنَّ الدولةَ في سورية فشلت فشلاً ذريعاً في تكريس ثقافة الالتزام بسَدَاد الضريبة وجعلِها راسخةً في العقل الجَمْعي، وهذا الأمر ليس وليدَ الحرب التي عصفت بالبلاد، وإنما قد سبق ذلك بكثير، ففكرة أنّ هذه الضرائبَ إنما تعود على المجتمع ككل بفوائد من خلال مشاريع الدولة وتُسهِم باقتصاد البلاد ونهضتها لا وجود لها في أفكار الفرد وإيمانه، وبالتالي يغدو تقليلُ الضرائب أو الهروب منها هو الفعل الذكي الممكن الذي يُتقنه أبناءُ المجتمع، فلا خيرَ شخصياً للفرد بسَدَاد التزاماته، وبالتالي فإن فكرة أن ما هو غيرُ قانوني هو غيرُ أخلاقي لا وجود لها في التفكير العام، وفي المقابل نرى الكثيرَ من الناس تُبادِر طواعية لسداد ما يُسمَّى الزكاة عن أموالها، لأنه استقرَّ في ضميرهم الجَمْعيّ أنَّه واجبٌ عليهم تجاه ما يؤمنون به، فيتقدَّم واجبُ الفرد الديني على واجبه الوطني، والقصدُ ليس اعتبارَ الضريبة أهمَّ من الزكاة، إنما كلُّ القصدِ إيضاحُ كيف يميلُ الناسُ لثقافةٍ مترسِّخةٍ فيهم طَوْعاً، فإذا كان القانونُ ثمرةً من ثِمار الوعي فتطوره ومواءمته للعصر تتناسب طرداً مع درجة وعي الشعوب بحقوقها وبقِيَم عصرها الأخلاقية، وإذا كان القانون مسؤولية نُخَبِ المجتمع السياسية فإنَّ الوعي هو مسؤولية نُخَبِ المجتمع الثقافية.

إذاً إن القانونَ بتعريف بسيط هو ضمير الجماعة البشرية المكتوب، فإن لم ينبع منها كان قانوناً محكوماً بالتمرُّد عليه في أيّ لحظة ممكنة،

وإن كان ينبع من ضميرٍ غير واعٍ بحقوق الإنسان الطبيعية وواجباته كان محكوماً بأخلاق ما قبل الدولة (أخلاق القبيلة أو العصبيّة)، وكان ارتداداً على قِيَم القَرن الواحد والعشرين، ونكوصاً حضارياً للدولة، وبالتالي ثَمَّة مهمَّةٌ شاقَّة تبدو في تغيير الأفكار والمعتقدات لتُوائمَ قِيَمَ العصر، أو تغيير قيم العصر لتُوائمَ أفكارَ المجتمع، وهذه أهمُّ المشكلات التي قد نواجُهها، إن الصراعَ حتميٌّ بين الفرد ومنظومة القانون في حالِ كانت هذه المنظومة تخالفُ حقائقَه المُطلقةَ الموروثة، خاصَّة إذا كانت (حقائقُه) التي يتبعها أعلى من قوانين الدولة وتسمو عليها، هذا الصراع بين الفرد ومنظومة القوانين المفروضة عليه لا شكَّ ينتظر أيَّ حركة تاريخ حتى يتفجَّر، فيسعى الفردُ لجعلِ حقائقِه قوانيناً بدلَ تلك التي كانت، وإنْ كانَ سَنُّ القوانينِ وتطبيقُها على الجميع بما فيها النظامُ السياسيّ الحاكِم هو مسؤولية السُّلطة الحاكمة فإنّ تغييرَ العادات والأفكار، وتحريرَ الفرد (من وَهْم الحقيقة المُطلَقَة التي يملكُها ويرغبُ بتعميمها على مجتمعه) ليس سهلاً كتغيير القوانين، ولهذا وُجِدَ المثقّفون ليقوموا بهذه المهمَّة؛ مهمَّةِ تحطيم الأفكار الجاهزة المُعدَّة سَلَفاً واستخدامِ العقل ليكون فاعلاً في عصره، وينحو نحو المبادئ العالمية لحقوق الإنسان.

إنَّ أيَّ جماعة بشرية ترزحُ تحت نِيْر وَهْم امتلاك الحقيقةِ المُطلَقَة والحقِّ المُطلَق إنما تترك البابَ مُشرَّعاً لتقديس ذاتها وتدنيس الآخر المُختلِف لا تبحث عن المعرفة ولا يعنيها أن تمتلكَها أو تسعى إليها لأنها

تُقدَّمُ إليها جاهزة ولذلك أسبابٌ مختلفةٌ وهي على أهميتها لا بدَّ من ذكرها على عُجالة:

1. البحث عن انتماء، وهو نتيجة فقدان الانتماء للوطن وللعالَم الإنسانيّ كاملاً ممّا يستولدُ بالضرورة الاجتماعية البحثَ عن انتماءات أخرى كالدِّين، القبيلة، العائلة، المال والقوة، إنَّ فقدانَ الانتماء للوطن هو الشعور بعدم الترابط شعوريًا بين الإنسان ووطنه، عدم الإحساس بالمجتمع ومآزقه وهواجسه وذلك إمّا لإجحافِ السُّلطة بحقوقه الطبيعية – وبالتالي يصير إحساسُ المواطِن بالوطن مَشوبًا بالإحباط – أو لأنه يرى في الوطن غنيمةً ينبغي استنفادُها حتى النهاية دون أن يسدِّدَ فاتورتَه فيها وهذا قد يكون نتيجة الأولى، فينطلق الإنسانُ للسعي لبناء الذات بأية وسيلة دون الاهتمام بالجانب العلمي أو الثقافي أو الأخلاقي أو التفكير المنطقي فيكون الانتماء لنفسه أو لتعزيز طائفته فحسب، أو العلو بقبيلته أو عائلته، وتكون الانتماءات الضيَّقة بديلاً مناسبًا عن الانتماء للوطن، ويصير الخَلاص الفردي أَولى من الخلاص المجتمعي، الذي قد لا يعنيه، الأمر الذي قد يحوِّل الإنسانَ ليكونَ عدوَّ مجتمعِه، ويُطبِّق المثَلَ الشعبيَّ الشهيرَ: (أنا ومن بعدي الطُّوفان).
2. عدم الحاجة للمعرفة، وبالتالي عدم السعي إليها وذلك بسبب البيئة الاجتماعية المُغلقة دينيةً كانت أم قبلية، فأما الدينية فهي التي يكون

مصدرُ تنويرها رجلَ الدِّين الذي يكفيه أن يحفظ عدَّة كُتبٍ في الدين تقوم على الإيمان المُطلَق واليقين الكامل بالحق ليُحاضر بحَمَلَةِ شهاداتٍ علميةٍ عاليةٍ ينساقون وراءه تاركينَ عشراتِ الكُتُب التي قُرئتْ على الأقل في الفترة الدراسية، ويأخذون بمشورته باعتباره الخبيرَ بشؤون دنياهم وآخرتهم، وأما القَبَليَّة فهي التي يكفي فيها وجودُ زعيمِ عائلةٍ أو عشيرة لتُساقَ الأفرادُ خلفَ مشورته، وغالباً ما يكون هذا الزعيمُ أكثرَهم جاهاً ومالاً لا أكثرهم حكمة، وَرِث الزعامةَ عن أبيه ولم يستحقَّها حقيقةً، وهنا تغدو الحاجةُ للجواب غير ضرورية بالنسبة لأيّ سؤالٍ لأن الأجوبةَ موجودةٌ عند هَرَمِ تلك البيئة، وتغدو المعرفة ما نسمع منهم لا ما نقرأ، ما يأتينا جاهزاً لا ما نفكّر فيه، ما ندعمه غيباً لا ما ننتقده عقلاً، فتفقُد المعرفةُ معناها من حيث هي **فنُّ بناء المستقبل وتحقيق المستحيل**[1] كما وصفها نصر حامد أبو زيد. فيستطيع زعيم العشيرة زجَّ تابعيه في أيّ معركة دون أن يُفكّروا، ويتحالف مع من يشاء دون مشورتهم، ويخاصم من يشاء دون النظر لإرادتهم، لأنه موجودٌ بقوة الإرث والعادات والتقاليد وإيمان أتباعه به، ووجوده يفترض وجود تابعيه لا العكس.

(1) نصر حامد أبو زيد، (النص – السلطة – الحقيقة)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1995، صفحة 66.

3. إرثُ التحيُّز الفكريّ، بمعنى أن تؤمنَ إيمانًا مُطلَقًا بأن فكرتَك هي الصوابُ وعدم قبول غيرها أو نقيضها مهما بدت أقربَ للصواب ومهما سِيْقَ عليها من أدلة، ورفض المساس بإيمانك باعتبارك مالكًا للحقيقة المُطلَقة، وهذا التحيُّز يوَّرَثُ لأطفالك وتُلزمهم به ووعيهم لم يكتمل بعد، مما يؤدي بالتالي لنشوء جيل يؤمن بما يؤمن به السَّلَف غَيْبًا دون أدنى نقاش أو محاولة لهذا النقاش اعتماداً على العُرف والعادات والتراث والعاطفة الشعورية، فينشأ جيلٌ أشبهُ بالجيل الأول من حيث المعتقدات والطقوس والحياة، فلا يقوم الأبوان بتعليم أطفالهم كيف يفكرون بل يكتفون بتلقينهم أفكارَهم بوصفها الحقيقة المطلقة وفي هذا يقول فولتير: «**إن التحيز هو رأيٌ بلا حُكم هكذا يُلهِم الناسُ أطفالَهم في العالَم بأجمعه بكل تلك الآراء التي يرغبون فيها قبل أن يستطيعَ الأطفالُ أن يحكموا**» [2] وهذا ما تناوله فرنسيس بيكون في كتابه (الأُرغانون الجديد) بشرح وافٍ عن منهج التفكير الواجب اتباعه لتحطيم أوثان العقل، إن أسلوبَ التحيز يقوم على اليقين لا على الشك فيكون منهج التفكير منصباً حول تأكيد واقعة لا تحليلها أو تفكيكها والبحث فيها، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى الخوف من التفكير، هذا الخوف الذي ينعكس خصومةً وعداوةً مع الآخر

(2) فولتير، القاموس الفلسفي، ترجمة يوسف نبيل، مؤسسة هنداوي سي أي سي، صفحة 263.

المُختلِف خشيةَ كشفه أن ما نراه حقيقة هو محضُ خرافة ووهم يسكُنُنا، فبعض الناس يُفضِّل ارتداءَ الوهم على عُري الحقيقة.

4. الأخلاق الناقصة: فالأخلاق قيمة في كل المجتمعات دون استثناء لكن مفهومَها يختلف تبعاً لثقافة كل مجتمع من المجتمعات فمثلاً إن تهرُّبَ سياسيّ في فرنسا أو ألمانيا من دفع ضرائبه قد يؤدي إلى طرده من عالَم السياسة ومن العمل في الشأن العام؛ لأن هذا الفعل قد تعمَّق في وجدان المجتمع أنه فعلٌ غيرُ شريف وغيرُ أخلاقي، إن الأخلاقَ هي إحدى دعائم شرف الإنسان، لكن حتى الشرف له مفهومُه الخاصُّ في مجتمعاتنا العربية والمجتمع السوري بشكل خاص، ونرى هذه المفردة أكثر ما تُطرَحُ حين يتعلق الأمر بالأنثى، إذ إننا نلاحظ أن الشرفَ مقيدٌ بالأنثى والعلاقة معها فحسب، يستيقظ الابن على أبٍ مُتسلّط متملّك وأم راضخة، فيرى في نفسه الوصيَّ والقيّمَ على شقيقته ومن ثم على زوجته، كما والده هو الوصيُّ والقيّمُ على والدته، ويغدو مفهومُ الشرف لديه محصوراً بأنثاه (عِرْضِه) الأنثى التي يستطيع الوصاية عليها باعتباره كائناً أعلى شأناً منها بحكم العادات والعُرف، وترضخ له فلا يغدو للشرف من قيمة في العمل أو الصدق أو الرأي أو العدل أو الحق أو الأخلاق، يغدو الشرفُ وحيداً محصوراً بجسد الأنثى، فالحقيقة الوحيدة الموجودة في لا وعيه أنه أكثر تأهيلاً من الجنس الآخر ليكون وليعمل وأكثر حرية منها، والحقيقة الوحيدة

المرسومة في خياله هي واجباتها في الإنصات إليه، وهنا يمكن للإنسان أن يتحمَّل قراراتِ الآخرين والإنصات لكذبهم وظلمهم دون معارضة، دون أن يشعر بنقص في كرامته، ودون أن يرى في ذلك أن هذه الأفعالَ غيرُ أخلاقية، لكنه لن يتحمل أبداً قراراتِ شقيقته في لباسها وحياتها ودراستها واختيار شريكها، وهذا ما يورث الفكرَ الواحدَ الذي يخشى كلامَ الناس أكثر مما يخشى هدرَ الحقوق الطبيعية للإنسان، وبالتالي فالإنسان لا يعنيه من الشرف صدق القول واقترانه بالعمل، لا يعنيه إن كان متملِّقًا متزلِّفًا، لا يعنيه الاعتداء على الآخرين، لا يعنيه من الشرف غير جسد الأنثى هذه هي الحقيقة التي تعنيه.

5. الساسة، فلطالما كانت القضايا النبيلة كمفاهيم العدالة والمساواة والحرية والديمقراطية والدين والأرض والعادات والأعراف هي المطيَّة التي يركبها رجالُ السياسة لتسيير الشعوب وجعلهم جنوداً يدافعون عنهم أو عن برامجهم دون تفكير، فتجنح الشعوبُ للعصبيات الدينية أو القومية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، ولا يمكن لنا أن نقول بأن رجالَ السياسة أناسٌ سيّئون، إنما لا يثيرهم جهلُ وحماقةُ جمهورهم، بل إدارتُه وقيادتُه في خير الصالح العام كما يدّعون، فليس همُّهم إيقاظَ الوعي في الشعب أو نشرَ المعرفة وحثَّ الناس على السعي إليها كما يفعل المثقّف الذي يُمكن اعتباره بنّاءَ

المجتمع والأبَ الفعلي للوعي الجمعي، وبالتالي فتأثير المثقف في المجتمع أهمُّ من تأثير السياسي ووجود النُّخبة المثقَّفة التي همُّها وعيُ المجتمع هو ما يؤدي بالنتيجة لجعل المجتمع على قَدْرٍ عالٍ من المسؤولية ويُحسِنُ اختيارَ سياسييه، إن السياسي يُمارس فنَّ الممكن الذي يقتضي التنازلاتِ حينًا والتبريرَ حينًا والتمويهَ أحيانًا أُخرى، ويُعنى بالمشاعر أكثر من عنايته بالعقل، فبقَدْر ما يستطيع اللعبَ على عواطف جمهوره بقَدْر ما يحقّق النجاحَ، وهذا عكسُ ما يعني المثقف الذي إنما يخاطب عقلَ الجمهور لا عواطفه، وقد يُمارس نقدَه عليهم لا يُسايرهم، وبالتالي فإن أفكارَ المثقف ذات التأثير الأكبر في وعي المجتمع الذي يختار سياسييه، وليس أدّلُ على ذلك من مقولة لويس السادس عشر حينما قال: فولتير وروسّو هدما فرنسا بمعنى أنهما قد هدما المَلكية الفرنسية لما كان لأفكارهما من أثر في الثورة الفرنسية.

6. المثقف المهزوم الذي ترك الميدانَ طَوعًا أو جَبْراً فانتصرَ الوهمُ.

المثقف.. مَنْ؟ ولماذا؟

لم توجد ثورة رئيسية في التاريخ الحديث بدون المثقفين، وعلى نحو معكوس لم توجد حركة مضادة للثورة بدون المثقفين أيضاً، لقد كان المثقفون آباء وأمهات الحركات[3] وإذا انطلقنا من نظرة إدوارد سعيد هذه نجد أن للمثقف الدورَ الأهمَّ في حياة شعبه وتاريخ بلاده والإنسانية، الدورَ الذي يجد نفسَه مُرغَماً عليه لأنه فكرةٌ أصيلة في وجدانه، فالمثقف هو الشخص الذي نَذَرَ نفسَه لإيقاظ ضمير وعقل أُمته خاصةً والإنسانية عامةً، ويجد لِزاماً عليه أن يُطابِقَ الواقعَ مع فكرِه كما يطابق سلوكَه الشخصيَّ مع أفكاره بكل شجاعة، وهنا يكون الخاصُّ لدى المثقف عامّاً والعامّ خاصّاً، فينطلق من أفكاره سعياً للخير العام، ومن الخير العام لبناء أفكاره الشخصية وتقويمها وتصويبها، المثقف هو الرسالة والرسول مهما كان الطريق شاقاً ومُضنياً وصعباً وهنا يكمن دورُه ووظيفته.

يرى أنطونيو غرامشي المفكّر الماركسي الإيطالي أنّ كلَّ الناس مثقفون، لكن ليس كلُّ الناس يمارسون وظيفةَ المثقفين في المجتمع، وقد قسَّمَ المثقفين الذين يمارسون وظيفة المثقفين لقسمين: المثقفون التقليديون هم أولئك الذين يقومون بالأمور نفسها عاماً بعد عام، كمعلمي المدارس مثلاً، والمثقفون العضويون الذي يتماهون في

(3) إدوارد سعيد، **الآلهة التي تفشل دائماً**، دار التكوين، طبعة 2003، صفحة 24.

المجتمع وطبقاته المختلفة، ولكن هل يمكن اعتبار أستاذ اللغة العربية مثقفاً، المهندس، الطبيب، مما لا شكَّ فيه أنّ الشهادةَ الجامعية في هذا الزمن لم تَعُد وسيلةً لكَسْب العِلم، إنما وسيلة لكسب الرزق وتحسين فرص العمل ليس أكثر، وبالتالي فإن أيَّ شهادة جامعية لا تعني أن صاحبَها قد امتلك قدرة النقد والتحليل، وأنه امتلك من المعرفة ما يؤهله ليكون قادراً على التفكير الحُرِّ في الحياة، فالمثقف الذي نفتقده هنا هو القادر على إيقاظ جذوة العقل في مجتمعه ليس المثقف الذي يحيا في حقله المعرفي الصغير يفيد الآخرين من معرفته بموضوع محدد، وتراه لا يفقه غير ما قرأه في الكتب المدرسية أو الجامعية، فهؤلاء (المثقفون العضويون) في لحظات الانهيار الكبير قد تجدهم يفتقرون لأبسط أدوات النقد العقلي في حقل الشأن العام، ويتعصبون كأي متزمّت لأفكارهم القبلية، ويغدو العقلُ مُغلقاً على نفسه، وقد تجد الخوفَ آخذاً منهم كلَّ مأخذ، فأصبحوا يداهنون ويتملَّقون، فرسالتهم إيجادُ حلٍّ يعرفونه لمشكلة من المشاكل، كالطبيب الذي رسالته معالجة المريض بسبب حقله المعرفي، أو تقني الحواسيب الذي مهمته تطوير الحاسوب وبرامجه وتلافي الأخطاء والمشاكل، وليس القصد هنا أن على المثقف أن يكون ضليعاً في كل الحقول المعرفية إنما أن يمتلك أدوات النقد، والبحث المعرفي، وتصويب الخطأ، والبحث عن الحقيقة، وليس عليه العيش في برجه العاجي بعيداً عما يحدث في مجتمعه، بل في تلك اللحظة تحديداً

من التاريخ حيث يكون الانهيار في أوجِهِ عليه أن يتماهى مع مجتمعه ومع طبقاته لينهضَ بالعقل الجمعي نحو الحق والخير والجمال، لا نحو الجريمة كما فعل روبسبير بعد الثورة الفرنسية، وما عُرِف بعهد الإرهاب الذي كان أحدَ رموزه فصار أحدَ ضحاياه، هذا التماهي لا ينبغي أن يكون تماهيـاً في الوعي، بل تماهيـاً بعيش هواجس وآلام ومعاناة الشعب والنهوض بوعيه لا مسايرته والتملُّق له، فكما على المثقف أن لا يعيش في برجه العاجي، كذلك عليه أن لا يتنازل عن وعيه أيـاً تكن وظيفته أو عمله.

علينا أيضاً أن نميّز بين مفهوم العمل ومفهوم المهنة، وعلاقة المثقف بهما، فالمسرحي والممثل والمهندس والمحامي أصحاب مِهَنٍ، أما الموظّف والعامل هؤلاء يقومون بعمل، والمثقف لا هو صاحب مهنة ولا هو عامل، لكن قد يكون العامل أو صاحب المهنة مثقفاً حين يتجاوز حقله الخاص للعام، حين يدافع عن قيمة الإنسان دون أن يكون واجباً أو لِزاماً عليه الدفاع، فالممثل الذي يدافع عن ضحية في أصقاع الأرض فهو إنما يمارس صفة المثقف بقول الحقيقة وإرضاء ضميره، والكاتب حين يرفض كتابة قصيدة في مديح سلطان يَكسِرُ الأقلامَ المخالفة، فهو إنما يعلن عن موقف أخلاقي ويمارس دورَ المثقف هنا، والرسام الذي يرفض الحصول على جائزة لأنها قُدِّمت إليه لسبب غير أعماله الفنية ومن جهات لا تعيرُ الفنَّ اهتماماً كذلك يمارس دورَ المثقف، ولذلك فإن المثقفين لا

يمكـن تصـنيفهم كعـاملين أو مهنيـين إنمـا يُصـنَّفون كفئـة تقـوم بـدور في المجتمع، هذا الدور المهمُّ في البحث عن المعرفة وإيصالها.

إن المعرفة هي إحدى أدوات المثقف، ونقْدُ الخطأ هـو طريقُـه إليهـا، أما شجاعة قول الحقيقة فهي ما تُكسبه صفةَ المثقف الحقيقـي، الشـجاعة في وجه السُلطة وفي وجه الجمهور معـًا، الشجاعة في وصف الخطأ بالخطأ لا تمويهـه أو تبريـره حين يخـدم مصـالحَه أو أجنـدة فريقـه وتوجهاتـه، لا ينبغي له استخدامُ المعرفة للانتقاص من الحقيقة كاستعمال اللغة مثلاً أو استخدام أحداث لتبرير أحداث، فمثلاً في حزيران من العام 1967 وقعت أكبرُ هزيمة بحق العرب على يد الإسرائيليين، فاستُخدِمَت اللغةُ لتخفيـف وصف ما جرى، وحتى الآن ما يزال الكثيرُ من المثقفين ووسائل الإعـلام باعتبارها آلة ثقافية هائلـة يصـفون مـا جـرى (بالنكسـة)، رفض الاعـتراف بالهزيمة وتمويهها باستعمال اللغة لكـي لا يسـتيقظ الـوعي فيسـتيقظ معـه حـس المسـاءلة لشـعب هُـدرَتْ كرامتُـه في سـاعات، أي وعـي هـذا الـذي يُخرِجُ جحافلَ لإعادة جمـال عبـد الناصـر للحُكـم وهـو المهـزوم في تلـك الساعات القليلة، أقل ما كان يُمكن أن يكـون هـو أن يُسـأَلَ هـذا الشـخصُ عن أسباب هذا الوهن العربي وهو الواعد بالنصر في كل خطاباته، وهذا ما لم يحصل ومـا يتكـرر يوميـًا، وحينمـا كتـب توفيـق الحكـيم كتـاب عـودة الوعي الذي يُفنِّد وينتقد وعيَه ووعيَ المصـريين عمومـًا بلغـة الشـعارات

التي لم تنقذهم وقتَ الحقيقة هاجمَه الكثيرون، وأولهم محمد حسنين هيكل، هذه اللُغة هي أمُّ أوهامنا.

يروي باولو كويلو في إحدى قصص كتابه (مكتوب) الآتي: **من بين جميع الأسلحة المدمّرة التي تمكَّنَ الإنسانُ من ابتكارها تبقى الكلمةُ أكثرها فظاعة وجُبنًا، يمكن للكلمة أن تدمِّرَ من دون ترك أثر**[4]. إن اللغة هي السلاح الموجَّه دائماً لتجهيل الآخر، كانت سابقًا تتم في الصحف ثم المذياع ثم التلفاز وحالياً عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وبعد غدٍ من يدري آلية وصولها، هذه اللغة التي بإمكانها أن تسجِنَ، بإمكانها أن تقتُل حقًا، هي سلاح المثقفين الكَذَبة، السلاح الذي يموت الجمهور بكل رحابة صدر وهو يتلقّى كلماتِها ظنًا منه أنها تُقال لمصلحته دون أن يترجمها ويفكك ما فيها، هي اللغة التي استعملَها وما يزال يستعملها العاملون في الحقل الثقافي على اختلاف موقعهم من المقتلة السورية، أولئك الذين يعدُّون أنفسَهم أفقهَ الجميع وأعلمَهم وأساتذةً لهم، الجالسون في الحفلة نفسها على مقاعدَ ذهبيةٍ يرفعون نَخْبَ الحياة فيما بينهم، ويرسلون كلماتِهم لتقتلَ الجمهورَ الأحمقَ الذي يرونه هكذا ويتبعهم، هكذا وبواسطة اللغة تستطيع أن تدخُلَ نادي المثقفين باستعمال لغة أكاديمية شديدة التعقيد لجمهور لا يعلمها أو يفهمها إنما يميل

(4) مكتوب، باولو كويلو، ترجمة رنا الصيفي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، 2010، صفحة 187.

بعواطفه لما تكتب لاتخاذك موقفَه السياسيَّ ذاتَه، هكذا تستطيع أن تنفذ إلى الإعلام عن طريق تسطيح الأفكار، وتمويه الحقائق، واستخدام ما تشاء من مصطلحات بمعنى أو دون معنى، فما من أحد قادرٌ على اكتشاف خِداعِك، ومَن يكتشفه هو عضو في النادي عينِه، فيداري على لغتك لأنه يستخدمها ذاتَها، وإن كان يختلف بالموقف معك، لكن نفعيـًا أنتما في الحفلة نفسِها، إنَّ جيرمي بينتام وجان ستيوارت مِل ومُنظِّري المدرسة النفعية إنكليزيَّة الأصل كانوا لِيتعجَّبوا لو كانوا أحياء من المآل الذي وصلنا إليه في تطوير نظريتهم من المثقفين الذين يرون في المنفعة أيَّ شيء ينتج عنه فائدةٌ وميزة لكنهم زادوا على النظرية بفتح المعنى العام (لأي شيء) حتى لو كان مجتمعهم أو وطنهم، دون أن يقصدَ أصحابُ المدرسة النفعية ذلك، فكلُّ ما من شأنه أن يحققَ فائدة يكون نافعـًا حتى ولو كانت حربـًا وقتلاً وتشريداً لآخرين، هذا الفكر المتعالي الطامح لخيره الفردي مستعملاً سلاح اللغة المبهمة – لجمهور قليل المعرفة – لأنه أضعف من أن يدافع حقيقةً عن قضية يعتقد بأنها مُحقَّة هو الوجه المثالي للمثقف المُحتال. هذا المثقف الذي قد يكون تافهـًا لكن ما يُعزِّزه الناسُ الذين يتبعوه ويدافعون عنه ويعتقدون لضعف مَلَكَاتهم أنه بكلماته المنمَّقَة الأكاديمية يوصِل صوتَهم للعالم، يعتقدون أنه المثقفُ الخبيرُ بشؤونهم، والعالِمُ بمصلحتهم، والمدافعُ عن موقفهم حين يكتب مقالاً ويحشُر فيه كلماتٍ مثل أبستمولوجيا، أنطولوجيا، أركيلوجيا،

سيكولوجيا، سيسيولوجيا، وغيرها آلاف الكلمات التي تراها محشورة في مقال المفروض أنه موجَّه للعامَّة لا للباحثين المترفين ثقافة، وكان بوسْعِه شرحُ ما يقول بأبسط لغة ممكنة تصل لجمهوره البسيط دون تكلُّف، لكنه يُصرُّ على استخدام ما يقول ليميز نفسَه ويُدهشَ جمهورَه، فلا تستطيع بعدها الوقوف بوجه جمهوره لتسأل هل ما كتبه ينطوي على حقيقة أم مجرد إيهام، هل ما كتبه نافعاً أم مؤذياً، هل هو جيد أم رديء، عن هؤلاء يقول آلان دونو نقلاً عن كريستين جودسي أستاذة الدراسات النسوية في كلية بودوين الأمريكية: **الميل نحو الغموض صار سِمَة مميزة للكتابة المعاصرة، وإن اللغة الأكاديمية هي الشيفرة السرية التي يستخدمها بعض الباحثين لكي يبعثوا برسالة مُرمَّزة تفيد بكونهم أعضاء بالنادي، إنها تضمن أن أحداً لن يستطيع أن يجزمَ ما إذا كانت أفكارُهم هذه مُبهرةً، سيئةً أو أنها لا تعدو أن تكون محضَ كتاباتٍ تافهة**[5].

إذا ما عَدَدْنَا المثقَّفَ مُنتِجاً للمعرفة، وعاملاً بالحقل المعرفي، فمن البدَهي أن يكون الجمهورُ هو المتلقي لهذا المُنتَج، يتلقَّاه لتنمو بذرةُ الوعي فيه شيئاً فشيئاً، هذه العلاقة قائمة بين طرفين؛ مثقفٍ لا يقبل الصيغَ السهلةَ، والاستنتاجاتِ الجاهزةَ، والقوالبَ المُعدَّةَ سلفاً، وجمهورٍ ينطلي عليه ما سَلَف، فمن واجب المثقف أن يُكرِّسَ ثقافتَه

(5) آلان دونو، نظام التفاهة، ترجمة مشاعل عبد العزيز الهاجري، دار سؤال للنشر، الطبعة الأولى، صفحة 110.

ليمنـعَ الجمهـورَ مـن أن تنطلـيَ عليـه حِيَـلُ القوالـبِ المُعـدَّةِ سَـلَفـًا والصياغاتِ والشعاراتِ الجاهزةِ والأفكـارِ الخاطئةِ، لكـن حين يتماهى المثقّـف مع تفكيـر وأهـواءِ جمهـوره، تماهِيًـا يجعـلُ الـوعيين علـى قَـدْرِ المسـاواة، فيتنـازل الأولُ لمصلحة الثاني عـن الـوعي بـدلاً عـن أن يكـون العكس، هذا الأمر يؤدي بالضرورة لفقدان المعرفة قيمتَها والتعويل عليها لتفـادي الخطـأ، وتمـاهي الـوعيين يجعـل مـن مهمَّـةِ نَقْـدِ الخطـأ مهمَّـةً مستحيلة، هذا التنازل يهِبُ الجمهورَ قدرةَ نفي مثقفه الذي كان يفخـر فيـه منذ حين إذا ما حاول نقْدَ الخطأ في موضعٍ ما، أو إذا حـاول نقْـدَ تصـرفٍ خاطئ قام بـه الجمهـورُ الـذي اعتـاد علـى أن تـتم مجاملتَـه دائمـًا، فيغـدو الجمهورُ الضحيةُ جلاداً، وإذا ما أردنا فهمَ المثقفِ الذي نفتقده ينبغي لنـا أن نسألَ السؤالَ المهمَّ ما الثقافة؟ هل هي قراءة عشراتِ أو مئاتِ الكتب، هل هي قدرة تحليل المعلومات المُتلقَّاة وتفكيكها، هل هـي إجـادة اللغـة الأكاديمية وتطويعها لإيصال فكرة، وهل هـي العِلـم بكـل شـيء أو بشـيء من كلِّ شيء؟ هل هي السلوك أو بمعنى من المعاني طريقة حياة؟

قبل البحث عن جواب يكون أقربَ للصورة المرسومة في أذهاننـا عـن تلك المفردة، ينبغي تقسيمُ الثقافة إلى مستويين؛ فـرديٌّ ومجتمعيٌّ، يـؤثّر المجتمعي بتشكيل الفردي، ويؤثّر الفـردي بتغييـر المجتمعـي، المسـتوى الفردي ينبثق من تراكم المعرفة بجهد عقلي خـالِص يـؤدي لسـلوك قـويم (أسـلوب حيـاة أخلاقـي) مقـرون بمسـتوى المعرفـة المُحصَّـلة، ويكـون

الوعي في النتيجة هدفاً بحدّ ذاته لتلك العملية الشاقَّة من بحث واطلاع وتمحيص وتدقيق ونقد وقراءة، الأمر الذي يصوغ الأخلاق في النهاية، ومن تلك الفكرة البسيطة عن الثقافة يمكنني القولُ بأنَّ الثقافةَ هي المعرفة والوعي اللذان يُنتِجان حياةً أخلاقية، فما معنى أن تكون سياسياً تنادي بالوطن لكنكَ مرتزِقٌ لأحد أجهزة المخابرات مثلاً، أو ما معنى أن تكون كاتباً أو شاعراً متَّقِدَ الأحاسيس لكن لا تعنيك مجزرة، وما معنى أن تكون مُتديّناً لكن لا يمنعك الدِّين من النفاق أو اللصوصية، إن الوعيَ بالإنسان باعتباره قضيةً، هو ما يخلُق ذلك المثقّفَ الذي تحتاجه الأمّة للتحرّر من نيْر أوهامِ السَّلَف والأفكار القديمة التي ربما كانت تنفع في زمان وما عادت تصلح لزمان، لذلك فحين نقول إنَّ المستوى المجتمعي يؤثِّر بتشكيل الفرديّ فهو إنما يؤثِّر بطفولته وأفكاره المُعَدَّة سَلَفاً والعادات الموروثة والتي توَّرَثُ جيلاً بعد جيل وهنا تكون أولى صدامات الفرد - في البحث عن وعيه وذاته - هي ثقافة المجتمع، تلك التي تأتيه جاهزةً من خلال العادات والتقاليد والتراث القائمين أساساً في بلداننا العربية على جانب كبير منها على الدين، فالثقافة العربية مستمدَّة بغالبها من التراث القائم على الحلال والحرام، وعلى تمجيد الأشخاص، وعلى قذف الأشخاص المختلفين، ثقافة قامت على عدم فهم التاريخ فهماً يُمكِّنُها من تجاوزه واعتباره أمثولة ينبغي التعلُّم منها لا تكرارها، والمبحث هنا ليس لنَقْدِ الدِّين، بل لنَقْدِ سلوكياتٍ وعاداتٍ وأفكار

صارت إرثـًا وقد ألبسوها ثيابَ الـدِّين، فمنـذ تشكُّلِ أولـى الـدول العربيـة القويـة وهـي الدولـة الأمويـة كانـت ثقافـةُ الـبلاد مطبوعـةً برغبـة الحـاكِم المعتمدة سُلطتُه على سُلطة النصِّ وتأويله وتفسيره، مضَتْ فتراتٌ ظهرت فيهـا طفـراتٌ فكريـةٌ وقـد خوصـمت وحوربـت واتُّهمـت بالزندقـة، وهـي التهمة الرائجة في تلك الأيام كتهمة العَمَالة والتخوين هذه الأيـام، وإذا مـا أردنا تعداد قتلى الأفكار في العصر الأموي والعباسي على وجـه التحديـد لما انتهينا من النَّوح على تاريخنا الـذي يرغـب البعضُ بإعادتـه، وربمـا في واقع بلداننا العربية والشرق أوسطية لا يُخطئ توماس ستيرنز إليـوت في كتابـه ملاحظـات نحـو تعريـف الثقافـة في جموحـه بتقـديم ثنائيـة الـدين والثقافـة إذ يقـول إنَّ ثقافـةَ شـعبٍ مـا هـي تجسيدٌ للـدين محـاولاً تجنُّـبَ اعتبارهما (الثقافة والـدين) شيئين منفصـلين بينهمـا علاقـة، أو اعتبارهمـا متطابقين، ويقول في مقدمة كتابه مؤمنـًا بتلك الثنائية **إنه لم تظهر ثقافـةٌ ولا نَمَتْ إلا بجانب الـدِّين ومـن هنـا تبـدو الثقافـةُ نتيجـةً مـن نتـائج الـدِّين، أو الدِّين نتيجة من نتائج الثقافة طِبقـًا لوجهة نظر الناظر**[6] ولذلك فإننا بنظـرة للتاريخ نرى ثقافة الحقيقة المطلقة المؤدية إلى العنـف والإلغـاء قائمـة في مجتمعاتنا وقد اعتمدت تلك الثقافةُ على النصوص الدينية سواء بتفسيرها أو تأويلهـا لِتتسـقَ مـع رغبـة الحكَّـام، فتاريخُنـا المملـوء بالـدماء لـم نعْقِـدِ

(6) ت. س إليوت، ملاحظات حول تعريف الثقافة، ترجمة شكري عياد، دار التنوير، الأولى، 2014، صفحة 18.

الصُّلحَ معه بأخطائه، أو بعدم صحَّة أفعاله، أو عدم مواكبتها لِقِيَمِ العصر الراهن، ولم نتجرأ على نقده، ولكي لا نرتكبَ مغالطة تاريخية وفق فِكْر ميشيل فوكو الذي يعدُّ أنَّ المسلَّمات والفرضيّات التي تتحكم بممارسة الفكر في عصر من العصور ليست هي نفسها التي تتحكم به في عصر آخر، وبالتالي فلا داعي لإسقاط مفاهيم حديثة على عصور سابقة بمعنى أن القضايا الأخلاقية في الزمن الراهن لا ينبغي إسقاطها على زمن مختلف، وبالتالي لا ينبغي مهاجمة الإسلام والتراث لأن في ظِلِّه قد جَرَتْ أفعالٌ نرى في قِيَمِ زمننا الراهن أنها غيرُ أخلاقية؛ لأن لكلِّ زمنٍ أخلاقَه وضميرَه الجمعيَّ، إنما يجب قراءةُ الحوادث التاريخية ضمن المناخ العامّ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي كان سائداً، وليس تقييمه وفقَ قِيَمِ هذا العصر لكي لا يكون غاية الباحث هي النقد لمجرد النقد وإسقاط عين زمانه على حوادث أزمنة أخرى، **فالباحث المؤرخ والتراثي الذي يكتب حول وقائع حدثت قبله ويقوّمها تراثيًا يفعل ذلك في ضوء عصره هو بالرغم من أنه يبقى مطالبًا بتقديمها من خلال عصرها هي في حال التعرض لها تاريخيًا**[7]، وكما علينا الابتعادُ عن مهاجمة التاريخ أو الفكر الإسلامي للسبب السابق كذلك علينا عدم الاستسلام لمحاولة البعض جعلَ عقيدتهم قانونًا يسري على المجتمع، وإعادة

(7) من التراث إلى الثورة، د طيب تيزيني، الجزء الأول، دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، حزيران 1976، صفحة 31.

السلوك التاريخي بعاداته وأفكاره باعتباره الحقيقةَ المُطلَقةَ التي جاء بها النصُّ المقدَّس متجاهلين المناخَ العامّ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتطوُّرَ المجتمع وأخلاقه، وأن ما يصلحُ لزمان قد لا يصلح لزمن آخر، وبالتالي يجب عدم التنازل عن حقِّ نَقْدِ التاريخ بشخوصه لغاية تطوّر المجتمع، لا أن يعدّها البعضُ مَسَاسًا بمقدَّساته، لأن عقيدةَ أيّ إنسان هي فعلٌ إيمانيٌّ فرديٌّ بين الفرد وما يؤمن به، فلا يجوز له تحويلُ إيمانه لقانون يسري على غيره، وإنَّ هذا التفكيرَ هو ما أوقعَ الكثيرَ من المثقّفين تحت نيران عقائد الأفراد الذين يعدّونها قانونًا ينبغي نشرُه وتعميمُه، لقد حاول العديدُ من المثقّفين الإسلاميين التوفيق بين الماضي والحاضر إلا أنها بمعظمها محاولاتٌ باءَتْ بالفشل واقعيًا، وهي كمحاولات رَتْقِ جبَلَيْن بسبب قُدسية النصِّ وتعدّد آراء كبار رجال الدِّين وخلافهم فيما بينهم حول النصِّ، وبالتالي خلاف مُريديهم حول امتلاك الحقيقة المطلقة، وفي هذا لم نخرج من تلك الدائرة الضيقة المعنية بالمقدَّس والمُدنَّس لم نخرج من دائرة العنف والإقصاء، يقول نصر حامد أبو زيد إن **قوانين إنتاج المعرفة في الثقافة العربية تحدّدت على أساس سُلطة النصوص فأصبحت مهمّةُ العقل محصورةً في توليد النصوص من نصوص سابقة**[8]، إن السياسة قد فرضت تُراثًا قائمًا على

(8) نصر حامد أبو زيد، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1995، صفحة 19.

مـذابحَ باسـم الإسـلام، وباسـم الـنصّ القـرآني، وإنتـاج نصـوص منـه، واستنتاج، وتفسير وتأويل، أدَّى لتحالفات مُشينة، وولوج للسلطة بوسائل أغلبهـا تنطـوي علـى الخديعـة والمكـر والخبـث لا الأخـلاق ابتـداء مـن العصـور الأولـى وانتهـاء بالعصـر العثمـاني والأمثلـة كثيـرة، وربمـا أولّهـا وأوضحها قضية مقتل عمار بن ياسر الذي قال عنه النبي محمـد إنـه تقتلـه الفئة الباغية، وقد كان يقاتل في صفِّ علي بن أبي طالب بمواجهـة معاويـة بن أبي سفيان، وحينما قُتِل قالَ فريقُ معاوية لكي لا ينسبوا لأنفسهم أنهـم البغاةُ بأنَّ من قتلَهُ هو من أخرجَـهُ مـن داره أي إنَّ عليًّا بـنَ أبـي طالـب مـن قتلَهُ، هذه التـأويلاتُ تسـتندُ لنصـوص مقدَّسـة، وتحـاولُ تطويعَهـا لـتلائمَ السُّلطةَ، والأمثلة غير هذا كثيرة ليس المجـال لـذكرها؛ لأن غايتنـا ليسـت محاكمـة ذلـك التـاريخ بـل الاعـتراف بـه وتجـاوزه، واعتبـار مـا هـو غيـر أخلاقي فيه وفـق رؤيـة عصـرنا الحـالي لا ينبغـي لنـا استحضـارُه والـدعوةُ إليه.

خلافـًا لنظرة إليوت تلك فـإنَّ الثقافـةَ أصـبحت منفصـلةً عـن الـدين في عصرنا الحاضر بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ، بل تفوَّقت عليـه مـن خـلال قِيَمِ الحرية التي سادَت أوروبا نتيجةَ الثورة الفرنسية، وكذلك من خلال القِيَم الأخلاقية التي أُدرجَت في شُـرعة حقـوق الإنسـان، التـي اسـتمَدَّت أغلـبُ دولِ العالَم دساتيرَها منها، وهي تقوم على ضمان حقوق الفـرد الأساسـية من حرية وعدالة ومساواة كاملة بضمانة القانون، فلا وصيَّ على تصرفات

المرء ولا رقيب غيرُ القانون، الأمرُ الذي أفسحَ المجالَ لكافة شرائح الشَّعب بالعيش والتفكير الحُرِّ دون انتقاصٍ من أحدٍ لأيِّ سبب كان سواء الجنس أو العقيدة أو اللون أو غير ذلك، وإنَّ خيرَ دليل على قولنا ما ندعوه بجرائم الشَّرف التي اقتُبِسَتْ نصوصُها القانونيةُ بالأصل من القانون الفرنسي، لكنَّ الفرنسيين قد تجاوزوها منذ سنين، بينما في سوريا مثلاً لم تُلْغَ المادةُ 548 من قانون العقوبات إلا في العام 2020 وهي التي تبيح لمرتكب فِعْلِ القتل بزوجته أو شقيقته أو ابنته التنصُّلَ من فعله، والتخفيفَ من عقوبته، فلم نستطع تجاوزَ ثقافة التفوُّق الذكوري، أو تكريس ثقافة المساواة بين الرجل والمرأة طالما أنَّ الكثيرَ يراها عَورةً، والكثيرَ يبحثُ عن تزويجها لأنه يرى في الزواج سُترةً، إنها ثقافة الشَّرف المرتبط بالأنثى التي تحدَّثنا عنها سابقًا.

كما أسهم المستوى المجتمعيُّ بتشكيل الفرديّ، فإن مهمَّة الفرديّ تكمُنُ بتغيير المجتمعي، وذلك من خلال إعادة تشكيل ثقافة المجتمع بهدم ما لا يصلح، وتقويم الاعوجاج من خلال البحث عن المعرفة للاستفادة منها، وهنا على المثقف أن يكون أركيولوجيَّ فِكْرٍ يتبع أعمال التنقيب والحفر في أعماق الموروثات التي يراها لا تنفع ولا تصلح لزمانه الحاليّ بمنهجيتها وعقيدتها وأخلاقيتها فيخلعها عنه، ويحاول خلعَها عن مجتمعه أو تجاوزها على الأقل، لكن من المهمّ لتفادي حالة النُّكوص والتقهقر للخَلْف أنه -ومع كلِّ معرفةٍ جديدةٍ - على المثقّف أن يُنشِئَ

مصالحةً مع نفسه ومع الحقيقة، عليه أن يبتعدَ عن التحيّزات المبنيّة على الآراء والأفكار الموروثة، والانطلاق من الشكِّ باعتبار الشكّ من عجلات تقدُّم المدنية، واعتبار أن لا مقدَّسَ في السعي وراء الحقيقة، فلا يرفض رأيًا لمجرد أن هذا الرأي لا يتبع هواه أو يحطم فكرة لأنها تحطم تابو يُقدِّرُه، والأهم أن يمتلكَ منظومةً أخلاقيةً تساعدُه في السعي لترويج أفكاره فيكون سلوكُه مطابقًا لأفكاره، فمَن يدعو للإنسانية لا ينبغي له التشفي أو الصمت على جريمة بحق آخرين لا يشابهونه فكريًا أو عقائديًا، ينبغي على المستوى الفردي خلْعُ كافةِ التحيّزات، ومخاطبةُ الإنسان بوصفِه إنسانًا، لا بوصفه جزءاً من مجموعة أو منطقة أو دين أو بلد، إنَّ المثقَّفَ في سَعيه لتغيير ثقافة مجتمعه يمتلك سلاحين؛ المعرفةَ ونقْدَ المعرفة، وعليه أن يُجيدَ استخدامَهما ليصلَ لمجتمع يشتهيه.

من كلّ ما سَلَفَ فإنَّ المثقّفَ الذي نبحث عنه هو من كان قولُه كفعلِه وسلوكِه، هو الضميرُ اليَقِظُ العامِلُ والناشطُ في حقل المعرفة والوعي، هو مُضيء الشُّعلة للجمهور ليُبصرَ الدربَ حقًّا، وليس صحيحًا أنّ المثقفَ هو الجامعيُّ، أو الطبيبُ، أو المهندسُ، أو المحامي، أو القاضي، أو غيرهم. فكلُّ هؤلاء عاملون في المِهَنِ الفكريّة لا في حقل المعرفة ونقدها، يصحُّ أن يمتلكوا ثقافةَ المِهنة، لكن لا يصحُّ أن نُسميهم مثقَّفين حقيقيّين، لأنه إذا كان هؤلاء المثقّفون العضويّون وفق وصف غرامشي يقدّمون ثقافةً للآخرين، فهي ثقافةٌ محدودةٌ بحدود حقلهم المعرفي المهني بمعنى

أن المحامي يُقدِّم ثقافتَه الحقوقيّة لشخص لديه نِزاعٌ قضائيٌّ إنما لا يصحُّ أن نصِفَهُ بالمثقَّف الحقيقيّ إلا حينَ يمتلكُ أدواتِ النَّقدِ المعرفيّ، ويصبح قادراً على إنتاج المعرفة وتقديمها بطريقة عقلية دون مداهنة أو تملُّق أو خوف، فليست قراءةُ القانون وفهمُه وشرحُه للعامَّة تجعلُ من المحامي المثقف الحقيقي الذي نقصدُه، إنَّما ما يجعلُه مثقَّفاً حقيقيًّا أنْ يرى مَوَاطِنَ الخللِ في قانون ما غيرِ إنسانيّ مثلاً، ويحاربَ لإلغائه، أو ينتقدَ محاكماتٍ غيرَ عادلةٍ تنتهكُ الضميرَ الإنسانيَّ لا يُداهن سلطة وضعته ولا يتملَّق لخيره الخاص ويُظهِرُ للعامَّة تأثيرَ القانون السيّئ عليهم وعلى خيرهم، لا رادَّ له في فعلِه وقولِه سوى ضميرِه.

المثقّف الحقيقي هو المثقف الشجاع القادر على إشعال جذوة التفكير في العقول، وطرح الأسئلة الصعبة، وتقديم الأجوبة لها مع سعيه الدؤوبِ للمعرفة والحقيقة، وربَّما من أجملِ التعريفات التي قِيلَت عن المثقَّف هو تعريف جوليان بندا الذي قال عن المثقّفين أنهم ملوكٌ حكماءُ يتمتَّعون بالموهبة الاستثنائية والحسِّ الأخلاقي العالي وقفوا أنفسهم لبناء ضمير الإنسانية.

يواجه المثقفُ في عالمنا العربي مشاكلَ جمَّةً لا حصرَ لها، وهذا ربَّما أحدُ أسباب ضمور المثقفين الحقيقين وظهور المثقفين الدجالين، مشاكل في منهج تفكير الجمهور المتلقي ومشاكل في منهج تفكير السلطة ومشاكل في حياته على الصعيد الشخصي بسبب رداءة واقعنا الثقافي من

إعلام ودُورِ نَشْرٍ وصحافة ووسائل تواصل اجتماعي التي هي طاغيةٌ على ما سَبَقَ، حيث أضحى الإعلامُ بشكلٍ عامٍّ غايته تسلية الجمهور، وتخلَّى عن رسالته في قول الحقيقة كاملة، وتخلَّى عن دوره ووظيفته كأداة توقظ الوعي، فرأس المال وأجندة رأس المال كانا سهمًا شقَّ قلبَ الإعلام، ومع وجود وسائل التواصل الاجتماعي التي فتحت المجالَ لكلّ فردٍ في أن يكون له منصته الإعلامية الخاصَّة ومنبره الذي يستطيع من خلاله قول ما يشاء، نجد أن السفاهة قد ازدادت، وانعدم التفكيرُ، وقد أضحت وسائلُ التواصل الاجتماعي وسائلَ للتحزُّب وللشعبوية، يكفي أن تضعَ تعليقًا معارضًا لفكرة أحدهم حتى تنهالَ عليكَ آلافُ التعليقات المسيئة التي لا تؤمن بأنّك إن ترفضْ فكرةً لا ترفض صاحبَها، وثقافة الإلغاء هذه هي أهمُّ المشكلات، حين تُعارِضُ فكرةً لشخص، أو يعارِضُ شخصٌ ما فكرتَك؛ فهذا الطريق الصحيح للبحث والمعرفة، ويُشكِّل الدربَ الصحيحَ لنضوج الأفكار للوصول إلى الخير العامّ دون تحزُّب أو تحيُّز، ولكنه أضحى في وقتنا الحالي وسيلةَ تنازعٍ، لأن كلَّ شخص صار يرى في ذاته الحقيقة المطلقة بفضل تملُّق جمهوره لأنَّ كلًّا منَّا يؤوي في حساباته الافتراضية من يُشبهه فكراً، ومن نراه المثالَ المُشتهى للمثقّف المشهور فإذا ما تكلم أيَّدناه حتى قبل أن نقرأ ما كتب فقط لأنه مشهور ويمتلك رأيًا يوافِقُنا، بغضِّ النظَرِ إن كان ما كتبه تافهًا أو عنصريًا أو كذبًا وافتراءً، فمَن سيجرأ على مواجهة أحد المثقّفين المشهورين ولديه آلافُ

المعجبين الذين يفتخرون بالانقضاض على المخالِف، لقد أضحَتْ وسائلُ التواصل الاجتماعي وسيلةَ شُهرةٍ للتافهين الذين يتبوؤون أعلى درجات الانتشار وهُم لا يقدِّمون إلا جسدَهم أو مداهناتٍ مقيتةً ونفاقًا عامًّا، أو الذين يقدِّمون ما هو غريبٌ دون قيمة، أو المتطرِّفون الذين لا يمكن لهم تقبُّلُ نقْدٍ من أحد.

لماذا المثقَّف؟

إنَّ كلَّ إنسانٍ يسعى لِولوجِ السعادة والجمال والخير والفضيلة واللذة والمعرفة، وهي المفاهيمُ التي كانت محورَ جوابِ الكثير من الفلاسفة عن سؤال الحياة ومعناها، وإن كان الإنسانُ في بلداننا ما يزال بينه وبين تلك المفاهيم بَوْنٌ شاسِعٌ، وتراه يلهثُ وراءَ أوروبا لاعتقاده وجودَ تلك المفاهيم فيها، وإنْ نسبيًا، فهذا لا يعود لأن الغربَ إذا أردنا التكلُّمَ بهذه الصيغة الاستشراقية هو أعلى شأنًا، إنما لأنه كافح ليصلَ الإنسانُ فيه إلى كافة حقوقه الطبيعية، واتجه بعد إنجاز حقوقه الطبيعية ليتلمس هدفَ الحياة، إن أوروبا عامةً التي نراها اليوم هي ابنة رينيه ديكارت، فرنسيس بيكون، باروخ اسبينوزا، جون لوك، فولتير، روسو، نيتشه، والكثير الكثير ممن ساهم برسم هذا الوجه الأوروبي الحديث، لا تستطيع أن تقول فرنسا دون أن تذكر فولتير وروسو وهوغو وسارتر وغيرهم الكثير، إن القيم العليا التي تتعزز في مجتمع ما لا تتأتى عن عبث أو من فراغ أو من جينات وراثية في شعب يمتاز بها عن غيره، فالحضارة وما لها من قِيَمٍ تتعزَّز في شعب ما لا علاقة لها أبداً بالعِرْق أو الطائفة أو المكان، وإنما مُحدِّداتُ التقدُّم الرئيسة درجةُ الوعي التي يعيشها شعبٌ من الشعوب وما يقدِّمه هذا الوعيُ للشخص وبالنتيجة للمجتمع.

لم يكن ديكارت الذي علّمنا كيف علينا أن نفكرَ في كتابه (مقال في المنهج) يشدو غيرَ خيرِ الإنسانية، كذلك فرنسيس بيكون في نظريته عن أوهام العقل في كتابه (الأرغانون الجديد)، كذلك اسبينوزا في رسالته (في اللاهوت والسياسة) وباقي آباء أوروبا من حاملي لواء القِيَمِ العظيمة في الحرية والعدالة والعقل، الذين استعذبوا العذابَ لأجل ما آمنوا به، ولأجل النهوض بالعقل ليصبحَ السيّدَ العالي، حتى إن تاريخَ أوروبا في القرن السابع عشر وبعده كان يُدعى عصرَ العقل لما أولاه مفكرو وفلاسفةُ أوروبا من قُدسية للعقل، وهذه شعوبهم الآن اختلفتَ معها أم اتفقتَ لا يمكنك إلا أن تقول إنهم ينعمون بالحرية والأمان والعدل والمساواة بفضل العقل، وذلك بعد صراعات دامية فيما بينهم حول تابوهات حطَّمها العقلُ أخيراً، وبالنتيجة يسعون لعيش هدف الحياة، هذا هو الجانب الذي يأتيه المثقفون في بلدانهم النهوضُ بالأمة بوعيها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، النهوض بوعي الأمة العقلي، وتعليم شعوبهم آلية التفكير والنَّقد والقدرة على اكتشاف تملُّق وتحريض الخطباء والسياسيين والأحزاب والشركات لهم، والقدرة على الوقوف على الخطأ والاعتراف به في لحظة قد لا تحتمل مثل هذا القول، خاصة في لحظات الحروب أو الهزّات العنيفة التي تُصيب الأمة؛ ففي تلك الهزات قد لا يحتمل الشعبُ أو أحدُ جماهير الحرب انتقاداً له لأجل خطيئة ارتكبها هنا ومجزرة ارتكبها هناك، وهو إنما يقوم بما يقترفه من جرائم

مُعتقِداً بنفسه أنه يدافع عن قضية عظيمة كالوطن أو الشرف أو العدالة أو الحرية، وأنه يقوم بعمل عظيم، وهنا يقع على عاتق مثقفي هؤلاء الجماهير الوقوفُ مع الحقيقة والضمير الإنساني، وإيقاظ الشعب بأن ما يقترفه هو جريمة وليس فعلاً نبيلاً لأجل قضية عظيمة، أو توعيته قبل حصول تلك الهزَّات العنيفة لكي يتجنَّب الخطأ وقت الانهيار، كما أن على المثقف ألا يتملَّق الجمهورَ، كذلك عليه أن لا يتملَّق الحاكمَ، لأن الحاكمَ كما الجمهور يريد من المثقف تأييدَه فيما يفعله لا ضميرَه، أو كما يقول توفيق الحكيم **فإن الحاكم لا يريد من المفكر تفكيره الحر بل تفكيره الموالي إنه يريد أن يسمع منه تأييداً لا اعتراضاً، ورسالة المفكّر في جوهرها هي الصدق والحرية** (9)، إنَّ التأكيدَ على (لماذا المثقف) وجوهر ضرورته ووجوده في حياة الأمة ليس لأنه مُخلِّصاً بل بوصفه يمثِّل العقلَ والضميرَ الحيَّ، فالتاريخ لطالما أعطانا دروساً وعِظةً في أن العقلَ الفرديَّ أعظمُ شأناً من العقل الجمعي، وأكثر إنتاجاً وقيادةً لأنه عقلٌ معرفيٌ بعيدٌ عن الانفعال والتأثُّر الدوغمائي بالأحداث، رصين وهادئ يبحث عن حلٍّ للمشكلات، له هدفٌ محدَّدٌ وواضحٌ ومشغولٌ بالأسئلة، وليس كالعقل الجمعي يقوده الوهمُ والعاطفةُ والانفعالُ وتحريضُ من يُصفِّق له على الصواب وعلى الخطأ، ومع ذلك فما من حركة أو ثورة أو حرب إلا وكان العامَّة هم المؤثّرين المباشرين فيها، ويكون تأثيرُ المثقّف تأثيراً غيرَ مباشرٍ

(9) توفيق الحكيم، **عودة الوعي**، دار مصر للطباعة، الطبعة الثانية، صفحة 50.

ومحدودًا من خلال تنوير العقل الجمعي قُبيلَ الأحداث الكبرى، أو تصويب أخطاء الجماعة بعدَها، العقل الفردي هو بوابة الارتقاء بالعقل الجمعي، فلن تستطيعَ أن تقولَ إن اليونان قبل بروتاغوراس، وجورجياس، وديمقريطس، وسقراط، وأفلاطون كما بعده، أو أن الفكر الإسلامي قبل واصل بن عطاء، وأبي الحسن الأشعري، وابن رشد، وابن سينا والغزالي كما قبله، أو نظرة المثقّفين الغربيين للفلسطيني من خلال إدوارد سعيد ومحمود درويش كنظرتهم لفلسطين حماس، مهمّة المثقّف الحقيقيّ هي التأثيرُ لا التأثُّر وهذا ما يميّزه عن العامّة التي يقول عنها باروخ اسبينوزا في رسالته في اللاهوت والسياسة: **إن طبائعَ العامّة شديدةُ التقلُّب لا يحكمها العقلُ بل تحكمها انفعالاتُ النفس وحدَها**[10] وهو ما قاله أرسطو **بأن الجماهيرَ عُرضةٌ للغِشِّ والخداع لأنها سهلةُ التضليل متقلِّبةُ الأهواء**[11] وهو الأمر ذاته الذي قصده مؤلِّف (سيكولوجيا الجماهير) غوستاف لوبون إذ قال **إن الجماهير لم تكن في حياتها ظمأى للحقيقة فمن يعرف إيهامَهم يصبح سيداً لهم، ومن يحاول قشعَ الأوهام**

(10) باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، طبعة أولى، 2005، صفحة 386.

(11) ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، 1988، صفحة 104 .

عن أعينهم يُصبح ضحيةً لهم[12]. وبالتالي فإن وجودَ المثقف يعني وجودَ العقل والضمير الإنساني في أوقات الكارثة من هنا كان لِزامًا علينا طرحُ سؤال لماذا المثقّف؟ والإجابة على لماذا ضرورة المثقّف فلأنه الساعي لتبديد ظُلمة الدَّرب أمام الآخرين، لَذَّته وسعادته في إيصال رسالته بحدِّ ذاتها، لا أن يحطَّ من قَدْرِ وعيه لُيراعي رغبةً فيه، لأنه القادرُ على ضبط انفعالاته فلا يخَدعُ أو يُمَوِّهُ الحقيقةَ إرضاءً لانفعالاته ورغباته، ولا يتملَّق للحفاظ على مكانته، ولا يساوم لتحقيق المنفعة المادية أو المكانة الشعبية أو السُّلطوية، هو الإنسان الذي ضميره هو السيّد العالي.

يغلب على ثقافتنا سِمَةُ العنف والإلغاء كما أسلفنا سابقًا، نلاحظه في تعامل الأبِ مع أولاده، والأستاذ مع تلامذته، والمدير مع عمَّاله، ورجل الأمن مع مشتَبهٍ به، ويندرج هذا العنفُ تحت تبريرات مختلفة كالتربية أو الانضباط أو التعليم أو الوطنية وغيرها، الأمرُ الذي يجعل من الحقوق الإنسانية مهدورةً، إن العنفَ ينمو في بلادنا دونما رادع، وليس هو وليد بنية عقلية خاصّة بنا، إنما هو وليد منهج تفكير وتربية أدَّى بنا إلى ما نحن عليه، يبتدئ ذلك العنفُ من أصغر تشكيل اجتماعي وهو الأُسرة؛ فالأب لا يأخذ دورَ المسؤول الراعي المُحبِّ إنما دورَ الإله، يبدأ بتشكيل أطفاله على هواه فارضًا احترامَه بالوعيد والتهديد والضَّرب في مرات كثيرة، هو

(12) غوستاف لوبون، **سيكولوجية الجماهير**، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1991، صفحة 122.

المعصومُ المُبجَّلُ القادرُ الذي لا رادَّ لمشيئته في المنزل، كلُّ هذا مع تهميش للشريك الآخر (الزوجة) وتعنيفها أيضاً وجعلها تسير على هواه، تنطلق التربية في عالمنا من قُدسيَّات ثلاث: الحلال والحرام، الشرف، الطاعة، فلا يُضير الأبَ أن يرى ولدَه يضرب شقيقَته، لكن يمقته أن لا يراه يُصلّي، ولا يُضيره رؤيةُ ابنه يغازل إحداهن أو ينامُ معها، لكنه يثور إذا شاهدَ ابنتَه تتكلم مع أحدهم، ولا يُضير الأبَ أنَّ ابنَه اعتدى على غيره بل يراه قوياً، لكنه ينفجر غضباً إذا عارضه الابنُ بكلمة وتمرَّد عليه، الابن هو الصورةُ التي يحاول الأبُ صناعَتها على شاكلته، من هذا التشكيل الاجتماعي الصغير تبتدئ الكوارثُ، يكبرُ الابنُ على احترام والديه، والده بشكل خاصّ، دونما سبب إلا ذلك الخوف المتشكِّل في طفولته منهما، وقد يكونان وَضيعَينِ غيرَ أخلاقيينِ لكنه مُلزَمٌ بالطاعة، ويقوى على شقيقته فيكون رجلَ الأمن في المنزل عليها بحجَّة أنها شرفُه دون أن يرى في الشرف غيرَ أُنثاه، وهذا ما يساعده عليه المجتمعُ الذي لا يأخذ موقِفاً من الكاذب أو اللص أو المهمل في عمله أو المُحتال أو المرتشي لكنه يأخذ موقفاً من ابن تمرَّد على أبيه لأنه يرى أنَّ أباه سافلٌ، أو من ابن فكَّر خارج تلك القواعد المعمول بها فازدرى دينَهم، أو من عائلة لم تقتصَّ من ابنتهم التي أحبَّت شاباً ولاقته، إن فِكرَ الحلال والحرام ينبغي أن لا يُعكسَ مجتمعياً، فما تراه حَراماً ثمَّة ربٌّ تؤمن به سيحاسب عليه، وليس من واجبك ارتداءُ عباءة الله في القِصاص، وإنَّ مفهومَ الطاعة ينبغي

تفكيكُه وإقامتُه على أسس عقلية، واستبدالُه بالتربية الصحيحة لا على أسس قَبَليَّة، وإنَّ الشرفَ ينبغي ألا يظلَّ رهينَ جسد الأنثى، ففي دراسة للهيئة السورية لشؤون الأُسرة حول العنف الأسري[13] والتي شملَت 5000 فتاة بعمر 18 عاماً وأكثر تنتهي إلى أنَّ 45.1٪ من النساء تعرضْنَ لعنف جسدي، وأنَّ أولَ مرَّة تعرضَتْ معظمُ المُعنَّفات للاعتداء كانت على يد الأب والأخ والزوج أي تعرضْنَ للعنف من قِبَلِ من يُعَدُّ الملاذَ والحامي والشريكَ، هذه الدراسة كانت في عام 2010 أي في فترات السلام فكيف والحال الآن حربٌ أُوارها لا يخبو، والتجهيلُ فيها عمليةٌ منهجية تجري على قَدَمٍ وساق، وتأكيداً لهذه الدراسة ثمَّة قضيةٌ شغلَت الرأيَ العامَّ السوريَّ لأنها انتشرت عبر وسائل التواصل الاجتماعي ولم تبقَ حبيسةَ جدران البيوت، فلم يستطع أحدٌ التكتُّمَ عليها بحُجَّة السترة والعيب والفضيحة، ففي أواخر العام 2021 قُتلتْ فتاةٌ هي زوجة وأمٌّ على يد زوجها تُدعى آيات الرفاعي في دمشق، وفي اعترافات أهل الزوج أنهم كانوا يضربونها أيضاً أي أنَّ عمليةَ التعنيف انتقلت بالوراثة من الأب حتى الابن حتى أفضت لموت الضحية، إن المُصابَ الأكبرَ في مجتمعاتنا وفي ثقافة العنف أن تلك القدسيَّات قد تكون محميَّة بالقانون الذي لا نجده يتخذ موقفاً صارماً من التعنيف الأُسريّ الذي يمارسه الزوجُ على زوجته أو على أولاده فلا يُشدِّد العقوبةَ على تلك الجرائم بين الأصول

(13) http://musawasyr.org/?p=1134

والفروع وينبغي طرحُ مثالين عن تساهل القانون مع مرتكبي الجريمة، ومحاولة تجريم الحرية سبق أن أشرتُ لواحد منهما وهو جريمة الشرف التي لطالما حماها قانونُ العقوبات السوري بنصوص مُبهمَة كمصطلح في صلات جنسية فحشاء أو مصطلح حالة مريبة مع آخر وهو تشريع فرنسي الأصل إلا أنَّ فرنسا تجاوزتْهُ منذُ زمنٍ ولم يُلغَ في سورية إلا في العام 2020، فينصُّ القانونُ في مادته 548 على أنَّ:

1. «يستفيد من العُذر المحلّ مَنْ فاجأ زوجَه، أو أحدَ أصوله، أو فروعه، أو أخته في جرم الزنا المشهود، أو في صِلات جنسية فحشاء مع شخص آخر فأقدَمَ على قتلهما، أو إيذائهما، أو على قتل أو إيذاء أحدِهما بغير عَمْد».
2. يستفيد مرتكب القتل أو الأذى من العُذْرِ المخفِّف إذا فاجأ زوجَه، أو أحدَ أصوله، أو فروعه، أو أخته في حالة مريبة مع آخر[14].

نرى أن القانون قد أقام الذَّكَرَ وصياً على سلوك الأنثى، رابطاً شرفَه بشرفها غيرَ مهتمٍّ بأنَّ لها عقلاً وحياة وحرية خاصَّينِ بها لا يحقُّ للذَّكَر اقتحامُهما وفرضُ ما يراه صواباً عليها، بل أعطاه الحقَّ بمجرد وجود حالة مريبة أن يقتلَها، فما تفسيرُ الحالة المريبة تلك؟، في العام 2019 أحدَثَ مقتلُ فتاةٍ ضجةً كبيرةً على وسائل التواصل الاجتماعي، قُتلت فتاةٌ

(14) قانون العقوبات السوري.

فلسطينيةٌ تُدعى إسراء غريب وكان المتهم إخوتها وذلك بسبب نشر صورة لها مع خطيبها على وسائل التواصل الاجتماعي ولولا وجود وسائل التواصل الاجتماعي لما عَلِمَ بأمر مقتلها أحدٌ، فهل هذه الحالة هنا تعَدُّ مريبةً أو خارجَ الآداب العامَّة لمجتمع ما؟ إنَّ إيهامَ النصوص بتلك الطريقة قد يفتح البابَ لألف تأويل للقتل وألف تبرير، إن هذا النصَّ هو انتقاصٌ وهدْرٌ لحرية كائن إنساني نصَّتِ الدساتيرُ العالميةُ وشُرْعَةُ حقوق الإنسان وكذلك الدساتيرُ السوريةُ على أن لا تمييزَ بين ذكر وأنثى في الحقوق، وكذلك سنرى في ثاني الأمثلة كيف نَصَبَ القانونُ من فكرة دينية مشنقةً بوجهِ مخالِفِها، وبنصوصٍ مُبْهَمَةٍ تحتملُ التأويلَ، يقولُ قانونُ العقوبات السوري:

المادة 517يعاقب على التعرُّض للآداب العامَّة بإحدى الوسائل المذكورة في الفقرة الأولى من المادة 208 بالحبس من ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات.

المادة 518 يعاقب على التعرُّض للأخلاق العامَّة بإحدى الوسائل المذكورة في الفقرتين الثانية والثالثة من المادة 208 بالحبس من ثلاثة أشهر إلى ثلاث سنوات[15].

وإنَّ هاتين المادتين تتركان البابَ مُشرَعًا لقَذْفِ أيّ خارجٍ عن ذلك الفِكْر، أو محاولة الخروج عنه بالسجن، وليس أدلُّ على ذلك إلا اجتهادٌ

(15) المصدر السابق.

لمحكمة النَقْضِ السورية الذي ما زال قائمـًا؛ وهـو اعتبارُ إفطار رمضـان يخـرج عـن الحريـة الشخصـية، ويـدخل ضـمنَ نِطـاق الأفعـال المُخِلَّـة بالآداب العامة، هذا الأمر الذي عنيناه سابقـًا بـأنَّ الثقافةَ العربيـة ممهـورةٌ بخاتم الدين، إن خطورةَ هكذا مـواد قانونيـة لا تتـأتى مـن فردانيتهـا بحالـة واحدة، إنما بتسويقها لحالات كثيرة إذ يستطيع أيُّ قاضٍ أن يسـجنَ اثنين تبادلا قُبلةً في الشارع، إذْ إنَّ هذا السلوكَ لم يعتدْهُ الشارعُ، ولربَّما مستقبلاً في مناطقَ ذاتِ أغلبيةٍ غيرِ دينية قد يغدو ارتداءُ الحِجـاب مُخالفـًا لـلآداب العامَّـة ويسـتوجبُ العقـابَ، إن كـان هنـاك مـا يمـتهنُ الحريـةَ الشخصـيةَ للإنسان فهي تلك المواد القانونية التي تقطع عُنُقَ الحرية بسيف القانون.

لمـاذا المثقـف إذًا؟ لأن تلـك الأفكـارَ التـي ننشـأ عليهـا تحتـاج مِعْـوَلاً لتحطيمها، لتجاوز إرثِ التاريخ الذي نحمله، ولاعتبـار أن الإنسـانَ قيمـةٌ بحـدِّ ذاتـه، فـإن هـذا المعـولَ ينبغـي أن يمسـكَه مثقـفٌ لا يُهـادنُ في قيمـة الإنسـان، هكـذا قـانونٌ عليـه أن يُقـيّمَ اعوجاجَـه، كمـا عليـه تحطيـمُ تلـك الأفكارَ التي تنتقصُ من الكرامة والحرية الإنسانية لأيّ شخص كان ذكـراً أم أنثى، عليه واجبُ إعادة خَلْقِ الأخـلاق؛ فـلا تـرتبطُ بجسـد الأنثـى، بـل تكون الأخـلاقُ هـي الخيـرَ العـامَّ لا خيـرَ العائلـة أو القبيلـة أو المنطقـة أو الـدِّين أو المـذهب، فللعمـل أخـلاقٌ، كمـا للصـدق، كمـا للصـداقة، كمـا للحرب أخلاقٌ أيضـًا، هي التي لم نجدْها فقُتِلنا.

المثقَّف، السُّلطة، الإعلام

إذا عُدنا بالتاريخ قديمًا وسألنا من كان المثقف؟ سنجد أن المثقفين كانوا صفوةَ المجتمع، كانوا رجالَ الدين، وكهنةَ السلطان وحاشيته من وزراء ومعاونين وشعراء، أي أنهم كانوا الخمرَ الذي يَقطُرُ من دَنِّ السلطان، كانوا السلطةَ، كانوا الحاملين على طاعة المجتمع لأفكارهم وحرَّاس قِيَمِهم الثابتة، وهؤلاء يمكننا تقسيمُهم لطائفتين: حُرَّاس العقائد، ومرتزقة الفِكر، والطائفتان ما زالتا حيتَين حتى الآن، وما زالتا حاضرتَين حتى اللحظة في واقعنا العربي، لكنهما ما عادتا الكاهنَ ورجلَ الدِّين والحاشيةَ فقط، إنما أصبحتا الأستاذَ الجامعي والمحاميَ والكاتبَ والشاعرَ والطبيبَ والمهندسَ، والكثيرَ غيرهم.

أولاً: حُرَّاس العقائد المؤمنون بأيديولوجية الحاكم إيمانًا يقينيًا يقوم بمثابة الحقيقة المُطْلَقة الوحيدة الموجودة، والذين يُقسرون كلَّ شيء لتأكيد ما يؤمنون به، وينفون كلَّ ما من شأنه التشكيك بإيمانهم، فَهُم سلاطينُ أكثر من السلطان، صادقون مع أنفسهم، وكلُّ ما هو مخالفٌ سيكون عدواً لهم وللسلطان، يرَون في نهضة المجتمع أن يجعلوه يؤمن بما يؤمنون به، أن يكون عبداً لأفكارهم التي يرونها الحقيقةَ المُطْلَقةَ، لا يهادنون ولا يستسلمون، وقد يموتون في سبيل ما يؤمنون به، فمبدأ الرّيبة والشكّ بأفكارهم لا وجودَ له، أصحابُ يقين، ومتحيّزون لهذا اليقين، طاعنون بالآخر المختلِف، ووجودهم لا يعني عدمَ ظهور حالاتٍ ثقافية

عظيمة مختلفة عنهم، لكن ولِبُعدها عن أيديولوجية الحاكِم ومثقّفيه والمحكومين كان مصيرُها النفيَ أو القتلَ دائماً، هذا النوع من المثقّفين (حُرّاس العقائد) يعيشون في عالَم خاصٍّ بهم، يتوهَّمون أنَّ ما يؤمنون به هو الحقُّ المُطْلَقُ، وواجبُهمُ الأخلاقيُّ تعميمُه، مُستخدمين نفوذَهم وحِيَلَهم الفكرية وأحياناً أكاذيبَهم لِتَسُودَ حقيقتُهم وتفنى أفكارُ غيرهم المُخالِفة، يُروى أنَّ فقهاءَ حَلَبَ حينما أرادوا الإيقاعَ بشيخ الإشراق السَّهْرَوَرْدِيّ دَعَوه لمناظرة، واستلُّوا من غُمْدِ أفكارهم سؤالاً أيًّا تكن إجابتُه فالجوابُ يُدينُ صاحبَه، سألوه: هل اللهُ قادرٌ على أن يخلقَ نبياً بعد مُحَمَّدٍ؟، فأجابهم شيخُ الإشراق أنْ نَعَم. وكان جوابُه خاطئاً؛ إذْ إنَّ العقيدةَ الإسلاميةَ تقول إنَّ مُحَمَّدًا خاتمُ الأنبياء، وليس مِن نبيّ بعدَه، لكنَّ مُعضلةَ السؤالِ هي لو أجابَهم بـ لا لكانَ في جوابه حَدٌّ مِن قدرة الله في الخَلْق، ولكان أيضاً جواباً خاطئاً، هذه المناظرةُ كانت سبباً في أن يُقتَلَ شيخُ الإشراق السهروورديُّ بأمرٍ من صلاح الدين الأيوبي الذي أبرقَ لابنه حاكِمِ حَلَبَ بقتله بتحريضِ الفقهاء.

حارسُ العقيدة لا يمارسُ الخِداعَ عندما يُقصي الآخرَ المُخالِفَ، إنما يعدُّ نفسَه أنه يقوم بدوره بفاعلية حرصاً على مجتمعه، وخوفاً من دخول أفكار تهدم بنيانَه الفكريَّ، أو تَمَسُّ به وتُعرِّضُ المجتمعَ لخطر الابتعاد عن الحقيقة المُطلَقَةِ (أفكاره)، وبالتالي فهو يرى نفسَه مَعنيًا بتدعيم النصِّ الذي يتبعه، ويجِدُ فيمَن خالَفَ عقيدتَه أنه شخصٌ يهدِّدُ كيانَ المؤسَّسةِ التي يُغذِّيها وتُغذِّيه.

إنَّ المثقفينَ (حرَّاسَ العقائد) قد يتغاضَونَ عن سلوكِ أفرادٍ يخالِفُ عقيدتَهم إذا ما كانوا ذوي نفوذٍ أو داعمين لهم، بل حتى قد يتغاضَون عن فعلٍ أو سلوكٍ للسلطان يخالِفُ عقيدتَهم، لكن ولأنهم يجدِون أنفسَهم في موقع السلطة الذي يسمح لهم بإتمام رسالتهم في تلقين أفكارهم لمجتمعهم وجعله يؤمن بما يؤمنون به قد تجدُهم يبرِّرون أو يتحايلون على أفكارِهم ذاتِها للتبرير، وخشيةَ فَقْدِ السلطةِ تلكَ، وبالتالي ميزة السيطرة ومتابعة النفوذ الذي يمنحهم فرصةَ نَشْرِ حقيقتهم.

و لكي لا يُفهَمُ مِن العقيدة أنَّها الدِّينُ فقط، علينا أنْ نَعِيَ أنَّ العقيدةَ هي أيُّ أيديولوجية تقوم على أهداف تُعدُّ ساميةً وواجبةَ التطبيق والتحقيق، سواءً كانت دينيةً أم سياسيةً، فالسَّلفية السُّنِّية الدينية بكلِّ ما تحتويه من أحزاب إسلامية غايتها العودة بنا للعام 623 م مهما بدت أنها حداثوية وتَقْبَلُ الآخرَ، إلا أنَّ جوهرَ العقيدة ينفي منظومة أفكار القرن الواحد والعشرين عنها، فتلك السلفية لا ترى في زواج القاصرات جريمةً، بل ترى فيمن يُجرِّم هذا الفعلَ أنه مخالفٌ لها ولما تَدِيْنُ به من إيمانٍ واجبِ الاتِّباع، والسلفية الشيعية الاثني عشرية تؤمن بظهور مهديٍّ منتَظَرٍ من سُلالة علي بن أبي طالب سيقود حربًا ستأتي لا مَحالةَ بين المسلمين واليهود وفق النصوص الدينية، وبالتالي فهي لا يمكن أن تفهمَ صراعًا مع إسرائيل خارج هذه الرؤية - مهما حاولَتْ أن تدَّعيَ قِيَمَ القَرن الواحد والعشرين – ومهما تحدَّثَتْ عن حقوق الإنسان الفلسطيني، وعن نظام (الأبارتايد) الإسرائيلي في حقِّ الفلسطينيين، أو عن سياسة التهجير، فهي

ترى الحربَ العظيمةَ قادِمةً لا محالةَ، وعليها أن تكونَ في جانب الحقِّ، هؤلاء يؤمنون بتحرير الأرض القائم على نصٍّ دينيّ تنبَّأ لهم بذلك، لكنهم لا يمكن أنْ يؤمنوا بتحرير قرار الأنثى لديهم في زواجها ممن تُحبُّ أيـًا يكن دينُه أو أيـًا تكن أفكارُه، فكيف لمن يريد تحريرَ منزله أن يمنعَ عن ابنته حرية القرار في صُنْعِ منزلها.

والعقيدةُ البعثية التي تقوم على تطبيق النظام الاشتراكي، وتطبيق الوحدة العربية، وهو مشروعٌ مهمٌّ للعرب دون شكٍّ، لكنها لا يمكن لها أن تحتكِرَ المجتمعَ بهذه الحُجَّة، وهذا ما فعلتْه في الدول التي حكمَتها، لا يمكن لحزب في القرن الواحد والعشرين أن يكون وحدَه الوصيَّ على المجتمع، ويريد منه الإيمانَ بأفكاره السياسية والاقتصادية التي فشِلَ في تحقيقها على مدار خمسين عامـًا، فالبعثُ العراقيُّ، والبعثُ السوريُّ كلٌّ منهما كان يريد أن يثبتَ للآخر أنه بعثيٌّ أكثرَ من الآخر، وإن هذه السياسةَ أفضَتْ للتمييز بين المواطنين حسب انتمائهم للبعث أو عدمه، وهو ما أدخلَ في الحزب عناصرَ نفعيّةً هم المثقّفون الذين سنأتي للحديث عنهم لاحقـًا (المثقّفون المرتزِقة)، فاجتمع في حزب البعث (حرَّاس العقائد) و(مرتزِقة الفِكْر) بآنٍ معـًا.

العقيدة السورية القومية الاجتماعية التي مات مؤسِّسُها منذ عشرات الأعوام، فانقسمَ الحزبُ على نفسه مراتٍ ومراتٍ لِذَاتِ السببِ الذي قسَمَ بعثَ العراق وسورية؛ وهو إثباتُ مَن هو متشدِّدٌ بالعقيدة ومتشبِّثٌ بها أكثر من الآخر، وما زال يحيا بالفكر التاريخي ذاتِه، الفكرِ القائمِ على عنصرية

التاريخ، والذي يَفترِضُ وحدة سوريا الكبرى لاعتبارات تاريخية تقوم على وحدة الجغرافيا، ووحدة الشعوب القاطنة، ويريد من قبرصَ القرنِ الواحدِ والعشرين أن تعودَ فينيقيةً، وهو أعجزُ من أن يُرجِعَ حالياً صفوفَه المنقسِمَةَ لصَفٍ واحدٍ، وقد خاض في حرب لبنانَ صراعاً مَريراً إبَّانَ الحرب الأهلية، لأن السياسةَ لديه كانت في خدمة الأيديولوجيا.

وإذا ما أردنا ذِكْرَ أمثلةٍ عن العقائد لما انتهينا، لكنَّ الحديثَ عنها ضرورةٌ لِفَهْمِ القليلِ من صورة الخَراب الذي نعيشُه، ولأنَّ العقيدةَ جزءٌ من حياتنا، ولأننا خُلقنا لها، ولخدمةِ عقائدَ لها مثقّفوها وحُرَّاسُها تحوَّلَ ما يُمكن تسميتُه الربيعَ العربيَّ لعقيدة بدلاً من أن يكونَ مطلباً، ففي كلّ دول العالَم المتحضِّرِ حين تخرجُ مظاهرةٌ لأمرٍ ما، وحين يتحقق هذا الطلبُ، أو يُدْعَى لمناقشته، ووضعِ إطارٍ لحلِّه تعودُ الجماهيرُ إلى بيوتها، أمّا في ربيعنا الدموي تحوَّلَ المطلبُ لعقيدة، فكلُّ مَن هو معارضٌ للسُّلطة صار يُطالبُ برحيل السُّلطة غيرَ واعٍ للظروف الاجتماعية والاقتصادية والأمنية والدولية التي تجعل هذا المطلبَ قابلًا للتحقيق أو لا، وصارت الناسُ تتمايزُ بإظهار تطرُّفِها وراديكاليتها في تبنّي هذا المطلب (العقيدة). لقد كان مقتلُ المطالِب الشعبية أنها أصبحت عقيدةً لها مثقفوها وحُراسُها أيضاً.

ثانياً: مرتزقة الفكر وهؤلاء الذين يرون في السُّلطة إلهاً لا يرجون إلا البقاءَ في جناتِ نعيمِها أبدًا، وبالتالي فهذا النوعُ من المثقّفين لا يحملُ قِيَمَ الحقِّ والعدالة، ولا تُغويهِ الأمانةُ الفكريةُ وقولُ الحقيقةِ أو الالتزامُ بالأخلاقِ، ويمكننا أن نقولَ أنه موظفٌ في هيكلية السُّلطة، لا فاعلٌ فيها،

فهو لا يحمل سوى لواء قضاياه الخاصّة، ولا تعنيه قضيةُ الإنسان بوصفه إنسانًا يحقُّ له أن يعترضَ على السُّلطة وأن يحاكمَها لأنه هو أصلُ وجودها، إننا إذ نَدِيْنُ لفلاسفة عصر التنوير الأوروبي مروراً باسبينوزا وجون لوك وانتهاءً بجان جاك روسّو بظهور فكرة العَقْدِ الاجتماعي التي كانت البناءَ الفلسفيَّ لأغلبِ دساتيرِ العالَمِ، والتي لم تكن وليدةَ جهودٍ نفعيةٍ، إنما جاءت نتيجةَ العقل لا نتيجة الرغبة، نتيجة الخير العامّ لا الخير الخاصّ، نتيجة الآخر لا الأنا، فلابدَّ أن نقولَ أن علاقتَهم لم تكن علاقةَ ارتباطٍ لا فِكَاكَ منه مع السُّلطة، أو أنهم كانوا أدواتٍ للسلطة، فاسبينوزا يرى أنَّ غايةَ المجتمع هي الحريةُ لا العبوديةُ، إذ إنَّ سلطةَ الحاكِم مطلقةٌ، لكنها في الوقت نفسه محدودةٌ بطبيعة الرَّعِيَّة، وفي هذا يقول **إن الحاكِمَ الذي يبيحُ له القانونُ أن يفعلَ ما يشاءُ لا يمكنه أن ينتهكَ حقَّ الرعيَّة**[16]. فأيُّ مِن مرتزِقة الفِكر يرى أنَّ السُّلطةَ طاغيةٌ إذا ما طَغَتْ، وأيٌّ منهم قادرٌ على إدانة انتهاكٍ ارتكبتْه السُّلطةُ، أو إدانة اعتقال السُّلطة لرجلٍ قالَ رأيًا، جاءت نهضةُ أوروبا بفعلِ الدِّفاعِ عن الآخر المختلِفِ، واحترامِ حرية الإنسان، ولم تأتِ لاتّباعِ عقيدةٍ وغَضِّ الطَّرْفِ تحتَ اسمِها عن جرائمَ إنسانيةٍ، وهذا هو الوجهُ الحقيقيُّ للمثقّف، وليس ذاكَ الذي يكيلُ المديحَ ويتملَّقُ ويُداهنُ السُّلطةَ، فهذا الفعلُ يفعله المرتزِقُ الذي لا مهمَّةَ له إلا نفسه، وتمثِّل قضيةُ دريفوس

(16) رسالة في اللاهوت والسياسة، باروخ اسبينوزا، ترجمة د. حسن حنفي، دار التنوير، الطبعة الأولى، 2005، صفحة 376.

إحدى أكبر تلك التجلّيات لمهمَّة المثقَّف إذ بسببها **كان تعبير (المثقّف) وقبل أن يصبحَ اسمًا نوعيًا كان في البداية إهانة أو وصفًا غيرَ لائقٍ أوجدَهُ خصومُ المطالبين بإعادة محاكمة دريفوس**[17] ففي فرنسا عام 1894 حُكِمَ على الضابط اليهودي ألفرد دريفوس بالنفي بتهمة تسليم وثائق إلى السفارة الألمانية، وفي كانون الثاني 1895 أُطلِقَتْ صرخاتٌ وسط الجماهير بإعلان الموت لليهود، وفي آذار 1896 اكتشفَ الكومندان بيكار القائدُ الجديدُ في دائرة الاستخبارات أن دريفوس كان بريئًا وأنَّ المتهمَ أو المجرمَ الفعليَّ هو ضابطٌ آخرُ، لكنَّ الجيشَ حاولَ إخفاءَ نتائج تحرّياته، فنشأ معسكران؛ المعسكرُ المؤيِّدُ لدريفوس، والمعسكرُ المناهِضُ لهم، هنا وفي صفِّ أنصار دريفوس وبعد المبادرة التي اتخذَها زولا (الذي اكتسبَ شهرتَه لدفاعه عن دريفوس والذي وجَّهَ رسالةً مفتوحةً عبْر الصحف لكشف المكيدة التي تعرَّضَ لها دريفوس) سنجد أنَّ المثقّفين قد وجدوا أنفسَهم مُتحلِّقين حولَ مبادرته، هل نجد من مثقّفي السُّلطة مَن هو مستعدٌ للدفاع عمَّن يخالِفُها؟ بالتأكيد لا، هل نجد مَن هو مستعدٌ للدفاع عن إنسان يرفض ما يؤمن به هو؟ أو مَن هو مستعدٌ لخسارة امتيازاتِ السُّلطة مقابلَ رأي إنسان مختلِف؟، لا ينبغي للمثقَّف أن يكون مُستخدَمًا لدى السُّلطة يدافع عن سياساتها وينتقد مخالفيها، ولا ينبغي له أن يستسلمَ لشهوتها، إن مثقَّفَ

(17) سوسيولجية المثقفين، جيرار ليكرك، ترجمة د جورج كتورة، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، 2008، الصفحة 56.

السُّلطةِ النفعيِّ هو مرتزِقٌ، والمرتزِقُ هو الذي لا يؤمنُ بشيء سوى مصالحِه، وهنا تفقدُ رسالةُ المثقَّف جوهرَها في حماية حقِّ الآخرين بالتعبير عن آرائهم كيفما يشاؤون لا معاقبتهم، فلا تقدُّمَ لمجتمع يحمل فكرةً واحدةً ينبغي للأجيال أن تتوارثَها جيلاً فآخرَ، فصراعُ الأفكار دَرْبُ التقدُّم، إن فكرةَ النصِّ المُقدَّس والسُّلطة المقدَّسة على المثقَّف أن ينزعَها عنه لصالح فكرة القِيَمِ الأخلاقية الإنسانية والأمانة الفكرية، وعليه أن يقتنعَ أنَّ السُّلطةَ مؤسسةٌ لا قيمةَ لها دونَ مجتمعٍ، كما أنه لا انضباطَ لمجتمعٍ دونها، وبالتالي فهي تقومُ بدورٍ وظيفيٍّ لا استعلائيٍّ، فحين تقوم بعملها على أكمل وجهٍ فهي إنما تقومُ بواجبها فقط لا غير، أمَّا حينَ تُقصِّرُ فهي تكون خالفَتْ ميثاقَ العَقْدِ الاجتماعي وتفويضَ المجتمع لها وينبغي محاسبتُها.

إن مرتزِقَ الفِكر يلعبُ دوراً هائلاً في تمييع الوعي وإغراقه بالأكاذيب التي لا يعدّها أمراً غيرَ أخلاقي، فهو لا يعنيه أن يرى الجمهورُ الحقيقةَ بقَدْرِ ما يعنيه ترويجُ ما تريدُ السُّلطةُ أنْ يراه الجمهورُ، وقد نجده مَلَكيـًا أكثرَ من الملك يتعامى عن حقائق ماثلةٍ أمامَه، ويبرِّرُ أيَّ سلوك تتخذُه السُّلطةُ قد يكون خاطئـًا فيكذب على الجمهور وفي طريقه في الكذب على الجمهور يكذب على نفسه ليبرِّرَ ما لا يُبرَّرُ، وتراه عميقَ الالتزام باتباع السُّلطة لا يعنيه حُكْمُ الجمهورِ أو رأيُه، بل يعنيه حُكْمُ السُّلطةِ ونظرتُها له، وهو حين يقوم بدوره هذا نتيجة إغراءِ السُّلطة ومنافعِها يكون الجمهورُ وسيلتَه لتسويق نفسِه، إنه يستخدمُ الجمهورَ ولا يخدمُه، إنه في سبيل قضيته الخاصَّة مستعدٌ لبيع الأوهامِ لشعبٍ كاملٍ لكي يحظى بالرضا، وإنَّ

مسؤوليةَ انتشار مثلِ هذا النوع من المثقَّفين إنَّما تقعُ على عاتِق وسائلِ الإعلام في الدرجة الأولى، إذ يكفي (مرتزِقَ الفِكر) أن يمتلكَ موهبةَ الكلامِ والخطابةِ وتطويعِ اللغة وَحَشْوِها بمصطلحاتٍ قد يكون لا معنى لها؛ ليتقربَ من بعض المنظومة السُّلطوية، ويتصدرَ وسائلَ الإعلام، إنَّ من مشكلات وسائل الإعلام أنها قصيرةُ الوقت وكثيفةٌ، وبالتالي فالضيفُ المُستقبَلُ لديه وقتٌ قصيرٌ يقذِفُ فيه ما يريدُ الجمهورُ أن يسمعَه لا ما يقولُه العقلُ، خاصَّة حين تقوم وسائلُ الإعلام بتحويل برامجِها ونشراتِ أخبارِها لميدانِ صراعٍ بين قُطبَينِ، فما عادَ يهمُّ مَن يروي الحقيقةَ بقَدْرِ ما هو مهمٌّ مَن يستطيعُ التأثيرَ على الجمهورِ أكثرَ، ومَن سيخرجُ مِن هذه الحَلبة (البرنامج) منتصِراً على الآخر بالتشكيكِ به وبأفكارِه والطَّعْنِ بسلوكياته واستخدامِ الأسلحةِ اللغويةِ للتأكيدِ على فضائلِ السُّلطةِ أو مساوئها، وقد أصبحتْ وسائلُ الإعلامِ مُنحازَةً تمامًا، ونادراً ما تجدُ وسيلةً إعلاميةً تقومُ على إيصالِ الحقيقةِ لجمهورها، واستضافة من يستحقُّ مقاعدَها من المثقَّفينَ، وبالتالي صار يمكننا إعلانُ موتِ الحقيقةِ في وسائلِ الإعلامِ بعد أنْ أصبحتِ الثقافةُ في عصرها سلعةً، والمثقفونَ أدواتِ تسويقٍ للأكاذيبِ أو لإخفاءِ الحقائقِ، فأصبحت تُريد منَّا أنْ نرى ما تُريدُنا أنْ نراه وابتعدَتْ عن مهمتها الأساسيةِ بصفتها الكلمة التي تُطاردُ الأخطاءَ فتكشفها وتنقدها وتُظهِرها، المهمَّة التي لخَّصَها الدكتورُ هيثم منَّاع بقوله: إنَّ الصحفيَّ هو مؤرخُ اللحظةِ في السِّلْمِ والحربِ، وصَنْعَتُهُ تتلخَّصُ بكَشْفِ الأكاذيبِ سواءً تعلَّقَ الأمرُ بسَفْكِ دماءِ البَشَرِ في الحروبِ الساخنةِ أو امتصاصِ دماءِ الناسِ

بالفسادِ والتعسُّفِ في الحروبِ اليوميةِ الباردةِ التي يعاني منها أغلبيةُ البشر[18].

إذا كان المثقَّفُ سابقًا هو مَن يستخدمُ وسائلَ الإعلام مِن صحف وتلفاز لتقديم أفكاره دونَ أن يكون عليه من رقيب أو سلطان، فإننا الآن وفي زَخَمِ وسائل الإعلام نرى أن الإعلامَ أصبح يستخدم المثقَّفَ ليُصبحَ وسيلةَ تسويقٍ لما يُريدُه، وبالتالي صار يستخدم المثقَّفين لتدعيم رأيه، وانتقلت بندقيةُ الأفكار إنْ صحَّ التعبيرُ من كتفِ المثقَّف لكتفِ الإعلام الذي لا يكتفي بتقديم المثقَّف الموائم لتوجُّهاته، بل بإنتاج وصناعة المثقَّف وتسويقه وتسليعِ أفكاره لبيعها للجمهور (هذا وجهٌ آخرُ أيضًا لمرتزِق الفِكْر)، زادَ على هذا الأمر جوعُ الشُّهرة لبائعي الأوهام، فأيُّ قناةٍ إخبارية لا يناسبُها قولُ أحدهم تمتنع عن استقباله، وتعمل على تغييب صوته، وأيُّ أحدٍ يقوم بتسويق ما تريدُ من أفكار تستقبله وتقدِّمه تحت مسمَّيات مُضحكةٍ، وغيرِ صحيحةٍ، ومحتالةٍ على عقل المجتمع (محلِّل سياسّي – محلِّل استراتيجيّ – ناشط إعلاميّ)، وتفرِدُ له المساحةَ لبثِّ أفكارِها التي يظنُّ الضيفُ المثقَّفُ أنها أفكارُه، فتحاول تدعيمَ رأيها من خلاله، الأمر الذي يؤثِّر في المُتلقي، ويُسهِم في تحديد موقفه من أيّ قضية.

(18) الحرب المشهدية في أوكرانيا، https://www.raialyoum.comhttps:/ 29/ 3/ 2022.

إذا كان إعلامُ السُّلطة وسيلةً لتلميع صورة السُّلطة وتشويه خصومِها، وكان إعلامُ معارضةِ هذه السُّلطة وسيلةً لتلميع صورة خصومه وتشويه السُّلطة، حينها لن يبقى للحقيقة مكانٌ، حيث سيصبح الإعلامُ والإعلامُ المضادُّ وسيلةً لنَبْشِ مساوئ الـ (هُم)، والتعتيمِ على مساوئ الـ (نحن)، سيصبح الإعلامُ ميداناً لمن يُجيدُ إخفاءَ الحقائق أكثر، حين تستقبل القنواتُ الإعلامية رجالاً بصفات مشكوكٍ فيها كإعلاميين أو محللين سياسيين استراتيجيين، أو صحفيين أو ناشطين أو كُتَّاب، وتترك لهم الهواءَ لبثِّ جرائم الفريق الآخر دون نَقْدٍ لجرائم فريقهم، وفي حالات كثيرة يقومون بتبرير جرائم فريقهم وجعلها مقبولةً أو ضروريةً أو أمرًا لابدَّ منه على المستوى الشعبي بحجج كثيرة، أو تحت أسماء نبيلة، إنما تكون بذلك تلك القنواتُ الإعلامية توقِدُ نارَ الخلاف والدماء بإثارة عاطفة الجمهور المتلقي على الآخر، وفي هذه المصيدة وقعَ الكثيرُ من المثقّفين، فاستخدمتهم وسائلُ الإعلام دون أن يعلموا، أو كانوا يعلمون، فارتضَوا أن يلعبوا الدورَ الذي أرادته لهم وسائلُ الإعلام.

إن من يدفع ثمنَ الموسيقا يختار المعزوفة، يصحُّ هذا المثلُ في وصفِ مرتزِق الفِكر الذي يقدِّم المعزوفةَ التي يريدها الممولون والرُّعاة، ولا يضيره العودةُ عن قوله حين تعود السلطة عن قولها، بل يدافع عن عودتها بكل قوة، لا يرى تناقضاً بين ما قاله بالأمس وما يقوله اليوم وما سيقوله غداً، أذكرُ حينما كانت العلاقاتُ السورية التركية بأبهى حللها اختفى النَّقْدُ أو كاد أن يختفي تماماً لأربعمائة عام من الاحتلال العثماني، وعلى صعيد

صناعة الدراما التلفزيونية صرنا نرى صورةَ المحتلِّ التركي لطيفةً ودودةً مع الشعب، وحين ساءت الأمورُ، وتدهورت العلاقاتُ بين البلدين ذاتُ الصناعة أصبحت تُظهِر صورةَ العناصر العثمانية كمجرمين وسارقين ومستغلين ومحتلين بكل ما لكلمة احتلالٍ من معنى، إننا نعيش في عالَم الوَهْم حيث إننا نستمتع بمن يقدِّم لنا وَهْماً يناسب عواطفَنا وميولَنا وأمنياتِنا، حيث أضحى العقلُ مكانُه العزلةُ والوحدةُ.

لقد قلنا إن للسُّلطة مثقَّفين قد يكونون حراسَ عقيدة صادقين مع أنفسهم بحُكم عقائدهم، وقد يكونون مرتزقةَ فِكر صادقين مع مصالحهم، وإذا ذهبنا في الرأي القائل إن جوهرَ رسالة المثقَّف هو تقديمُ الحقيقة والبحثُ عنها والرقيُّ بالمجتمع وتصحيحُ الأخطاء أو التنبيهُ منها، فهذا ما على المثقف أن يكونه، وأن يكون دائماً العينَ الراصِدةَ لأخطاء السلطة أو محاولات تعسفها، وإن جازَ التعبيرُ أن يكون ناقداً لها، وبالتالي فإن قبولَ المثقف المؤيّدِ للسُّلطة أخطاءها وتبريرَها وتكريسَ خطابه فقط لمهاجمة الآخر والتحريض عليه هو ذاتُ الوجه للمثقف المعارض للسلطة الذي يقبل بلعبِ دورِ المُستخدَم في الإعلام، يُحرِّض على الآخَر، ويبرِّر أخطاءَ فريقه، هذان المثقفان إنما يتنازلان عن كل القِيم الأخلاقية، إن تبني المثقف لقضية ما ينبغي أن يكون نابعاً من إيمانه بها لخدمتها لا أن يتبنى قضيةً لتخدمَه وتخدمَ أهواءه ومصالحَه ورغباتِه، بمعنى لا ينبغي على المثقف بحُكم ميوله ومواقفه السياسية أن يُطالِبَ بقتل الآخر المُخالِف إرضاءً لجمهوره، أو إرضاءً لحقده وغروره وإلا أصبح يشدو مجداً

خاصّـًا، وأصبح بعيداً كـلَّ البُعد عـن رسـالته الحقيقيـة التي هـي الإنسـان، وهـذا مـا صـرَّح عنـه جوليـان بنـدا في كتابـه (خيانـة المثقفـين) إذ قـال: **بـدأ المثقفـون يمارسـون لعبـة الأهـواء السياسـية، أولئـك الـذين كـانوا يشـكّلون مكبحـًا للواقعية المبتذَلة عند الشعوب جعلوا من أنفسهم محرضـًا لها**[19].

لطالما ظهرَ المثقفون في وسائل الإعلام يتحدّثون عن القضايا كـالأرض والعقيدة والمؤامرات والشرق والغرب والحق والباطل، ويكون وقود هـذه القضـايا هـو الإنسـان الـذي قـد يجـد نفسـه مرغمـًا علـى المـوت في سـبيل إحداها، أو مُعتقلًا بسبب رفض إحداها، لماذا يُسَوَّقُ على الـدوام بـأن علـى الإنسان أن يخدمَ قضيةً لأنه ولِدَ في مكان ما ووجد نفسَه غارقـًا في عداوة لـم يكن طرفـًا فيها مع آخـر، أو متـأثراً بأفكـار لـم يـتعلم سـواها، أو وجـد نفسَـه مؤمنـًا بدين لـم يختره، ولماذا نادراً ما نجـدُ مثقفـًا واحـداً يقـول إن الإنسـانَ هو القضية، وعلينا باعتبارنا مثقفين أن نتبنى هذه القضيةَ التي تعلو أيَّ قضية أُخـرى، أيـن الخطـابُ الموجَّـهُ للإنسـان بصـفته قضـيةً ينبغـي الـدفاعُ عـن حقوقه، وليس استخدامه في قضايا لم يخترها.

(19) المثقفون المزيفون، باسكال بونيفاس، ترجمة روز مخلوف، دار ورد، الطبعة الأولى، 2013، صفحة 15.

الإنترنت والقرية الصغيرة

مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي التي جعلت هذا الكوكب حيًّا صغيراً، وهي الوسيلة الإعلامية الجديدة التي تفوَّقت على الإعلام التقليدي (تلفاز – راديو – صحف) إذ وهبت كل فرد على هذا الكوكب منصة يطرح فيها ما يشاء من آرائه ومعتقداته وأي شيء يراه مناسباً بكامل الحرية، وكذلك يضع رأيه على كل حدث مهم أو غير مهم، أصبح الإنسان يشعر بقيمته على لوحة المفاتيح أكثر من قيمته في الشارع والحي والمدينة والعالَم، إنها وسيلة لتبادل الآراء والمعلومات، وجزء مهم جداً في تشكيل الوعي العام، أو في الضغط على الحكومات أو المنظمات بقضية ما، إنها ذات أثر إيجابي هائل على حياة الناس والعالَم، ومن الوسائل التي قد تُحدِث تغييراً مُهماً بالضغط على الحكومات أو المنظمات أو الشركات أو الأفراد حين يُصبح الخبر أو الحدث عليها شأناً عاماً، ويمكننا تذكّر عدد كبير من الجرائم التي حصلت ودفعت السلطات لاتخاذ إجراء عاجل لامتصاص غضب الناس الإلكتروني؛ منها قضية السورية آيات الرفاعي التي قتلها زوجها، وكذلك الطفل السوري الذي اغُتصب من قِبَل شباب لبنانيين، وكان الفيديو الذي عُرِض وقتها قديماً إنما نتيجة بثه على منصة الفيسبوك أشعل الشارع وحرك السلطات لاتخاذ الإجراءات القانونية فوراً، إن هذا الأثر الإيجابي لوسائل التواصل

الاجتماعي لا يُقلل أبداً من مساوئها التي من أهمها تشكيل وعي جمعي مؤقت منفعل وجامح في أي حدث قد يحدث دون إعمال العقل، ودون تفكيك المعلومة بطريقة منهجية عقلية، وزيادة العنصرية والتطرف والكراهية تلك التي تدّعي وسائل التواصل الاجتماعي محاربتها، ذاتَ وقت ألقى الدكتور يوسف زيدان بقنبلته التاريخية في مقابلة تلفزيونية؛ حين قال إن صلاح الدين الأيوبي هو شخصية حقيرة فاشتعلت مواقع التواصل الاجتماعي رداً عليه ليس بطريقة تاريخية إنما بطريقة عاطفية دينية باعتبار صلاح الدين رمزاً إسلاميًا مهمًا ومن المُحال نقده، كذلك يمكننا تذكّر جريمة القتل التي حصلت في منزل الفنانة اللبنانية نانسي عجرم لشخص سوري ولم يشفع أن هذه القضية هي قضية قانونية بالدرجة الأولى لا يجوز الحديث فيها إلا لأهل الشأن إلا أن مواقع التواصل الاجتماعي قد اشتعلت ثانية وبطريقة عاطفية مناطقية عنصرية؛ فالسوريون يريدون إبراء ذمة مواطنهم من تهمة الدخول لمنزل الفنانة بغرض السرقة، واللبنانيون أشادوا بما فعله القاتل لأنه من لبنان، هكذا تشتعل القضايا ثم تُنسى بعد أيام قليلة لينشغل جمهور الإنترنت بقضية جديدة يريد أن يُدلي بدلوه فيها، في وجود وسائل التواصل الاجتماعي ينبغي أن يُصاحبها وعي مجتمعي وإلا زادت العنصرية الدينية والمناطقية وزاد تجهيل الناس بدل توعيتهم، ينبغي على الناس أن يتعلموا منهج التفكيك؛ أي ليس كل ما نشاهده يكون حقيقيًا، وليس كل ما نسمعه

يكون قد حصل، ففي أي قضية إشكالية ترى الجمهور لا يحاول أن يطرح الأسئلة لتفكيك القضية؛ لأن الانحياز العاطفي يأبى الطروحات المناقضة لما رآه وسمعه، إن سرعة الأحداث على وسائل التواصل الاجتماعي أضحت تستخفّ بعالَم الأفكار إذ إن منشوراً قيّماً من أسطر كثيرة ترى عليه تفاعلاً يكاد يكون معدوماً إلا من الفئة المهتمة بموضوع المنشور مقارنة بفكرة تُكتَب في سطر واحد، أصبح الجمهور يطلب السرعة حتى في المعلومة، لكن سرعة تبادل المعلومات التي وفّرتها تلك الوسائل لم تؤدِّ بالضرورة لنضوج الوعي، بل أدت لاستسهال الفكر وتمييعه، ذلك أن كل فرد أصبحت له منصته الخاصة، وأصبح يعتقد أنه مساوٍ فكرياً لأي مثقف، بل قد يعتقد أنه أهم منه إذا كان لديه متابعون أكثر من المثقف، دون الانتباه إلى أن المثقف ليس بالضرورة أن يكون شخصاً اجتماعياً ليحصد المتابعين على عكس الآخرين الذين قد يحصلون على آلاف المتابعين، لكن السؤال المهم هو هل المحتوى الفكري الذي يقدّمه (مثقفو وسائل التواصل) أهم من المحتوى الفكري الذي يقدّمه المثقف؟ والسؤال الآخر الذي ينبغي الإجابة عنه هل المحتوى الفكري الذي يقدّمه الاثنان يعزز متابعة أو عدم متابعة كاتبه؟

لقد أصبح منبع تلقُّف الأفكار مَن الذي يملك عدد متابعين أكثر، وبالتالي فالمقياس صار أعداد المتابعين، ولم يعد قيمة المحتوى الفكري الذي يُقدَّم، أصبحنا نتعرّف على وجوه أخذت تعمل في الشأن العام

وتقدّم أفكارها وأطروحاتها كما تشاء، وتُسوِّق لحقوق الإنسان والمساواة والعدالة، وهذا دون شك حقُّها، لكن تلك الوجوه أبعد ما تكون عن كلامها، إنهم هواة الشُّهرة الذين يُجيدون تحريض العواطف، هؤلاء دخلوا عقول الكثير من نافذة الهاتف النقال، وصاروا يؤمنون بأنهم أفضل من سواهم، يُحتَفى بهم في الأوساط الثقافية، والمنتديات، والإعلام، ومن قِبَل أشخاص في مواقع مختلفة سياسية واجتماعية بسبب متابعتهم وحصدهم لجمهور كبير على وسائل التواصل الاجتماعي، صار معيار الوصول إلى مجتمع النخبة هو ما تملك من متابعين على منصتك، وأن تُقدِّم نفسَك كأحد المُنادين بقضايا نبيلة، وأما مهارات القراءة والاشتغال بالمعرفة فما عادت تعني أحداً، وأما الخلطة الذكية لحصد متابعين كُثر فهي أن تقدِّم محتوى يُشعل العواطف والرغبات الدفينة فالجماهير عاطفية دوماً فلتُحرِّضها على السلطة لتكسب جمهوراً عريضاً من المعارضين، أو حرِّضها على المعارضة لتكسب جمهوراً هائلاً من المؤيدين، ولا يهم محتواك الفكري، إنما الأهم اللعب على انتماء عواطف الجمهور، أو عليك أن تُصبح كوميديان؛ لأن الناس ترغب في إضفاء ابتسامة على يومياتها القبيحة، أو عليك أن تمتهن البذاءة، ونقول لك بعد أخذك بهذه النصائح: مبارك، لقد تبوأت مقعدَك في قاعة النخبة الافتراضية.

إن الكثير استفاد من وسائل التواصل الاجتماعي وقد أصابته الشُّهرة بعدما كان مغموراً، وصار يُسلَّط عليه الضوء، وتُجرى معه المقابلات، ولربما دُعيَ لمؤتمرات عالمية، لكن ليس بسبب كتاب قد أصدره، وإنما بسبب موقفه السياسي، ولذلك يُحتَفى بكتابه ضمن جمهوره السياسي، حيث إن الفيسبوك صار وسيلة تحزّب أكثر منه وسيلة تواصل اجتماعي، فمُرتادوه يبحثون عن الانتماء لموقفهم، ولذلك يشكّلون مع من يوافق رأيهم فريقًا واحداً بموقف واحد، يتابعون نشرات الأخبار نفسها، الصحف نفسها، الصفحات المعنية بالشأن العام نفسها، ويهاجمون دفعة واحدة أيَّ شخصية تُغرِّد خارج سربهم، يُريدون من الجميع أن يتَّبعوا ما يرون أنه الصوابُ والحقُّ والإنسانيةُ، ويكيلون المديحَ لكاتب منهم أو شاعر أو رسام أو أي شخصية ثقافية، ويكيلون السُّبابَ والشتائمَ لأي شخصية تخالفهم الرأي، وبالتالي فإن الكاتب الذي اشتهر بسبب موقفه السياسي لن يجد بين جمهوره من يمارس النقد حول كتابه، ولن يجد من يُظهر جمالَ محتواه أو فشله بعين موضوعية بعيدة عن التحيّز، هذا الأمر لا يعني الجمهور كثيراً بقدر ما يعنيه لأي حزب ينتمي مفكرُنا وكاتبنا الكبير هذا، والشواهد كثيرة على ذلك إحداها المثقف السوري أدونيس الذي يجري تسفيهه ومحاولة إنكاره من قبل جمهور يختلف وإياه في الموقف، بغض النظر عن الأعمال الفكرية التي قدَّمها، وسبق أن ذكرنا محاولات تشويه المفكر المصري يوسف زيدان حينما قام بنبش التاريخ

وتحدَّث عن صلاح الدين الأيوبي بالسوء، والأمر الخطر أن الجمهور يحاكم مخالفيه من بوابة الأخلاق دائماً باعتبار مخالفيه أشخاصًا دون أخلاق، وهنا تغدو حتى الأخلاق منقسمة بين أحزاب الفيسبوك، كل حزب يرى في نفسه الأخلاقَ، وفي خصومه الوضاعةَ، وهنا يضيع المعنى ويغدو الجدل سفسطائياً لا يحاول أحد تحديد المصطلحات وتعريفها للانطلاق منها لبناء النظرة الصحيحة حول أي واقعة وتجاه أي شخص، فما هي الأخلاق؟ وكيف تكون؟ في تعريف الكلمة الصحيح وتحديد معناها جوهر القضية، لكن الجمهور ينطلق من ذاته وأفكاره وامتلاكه للحقيقة المُطلقة بتحديد ماهية ومعنى المفردات والمُصطلحات المبهمة، فيرمي الآخرين بما ليس فيهم لأنهم خالفوه الرأي أو أوضحوا وجهة نظر لا تستقيم مع الآخر فقط، ونلاحظ أن أحزاب الفيسبوك ليست أحزاباً سياسياً، بل أحزابٌ ثقافيةٌ تنقُصها الثقافة.

إن الحديث عن نخبة وسائل التواصل الاجتماعي، أو قادة الأحزاب (الفيسبوكية) غايته تحريك الجمهور ليعيَ ما يجري، لا غايته محاكمة هذه النخبة لأنها إنما تُعبِّر عن آرائها بغض النظر عن مصالحها المستترة، ومن حق أي أحد أن يُعبِّر عن رأيه، ومن حق الآخرين نقد هذا الرأي لا نسفُ صاحبه، فالكاتب الذي حصل على جمهور واسع بسبب موقفه لن يقبل أن يغيّر موقفه ولو أدرك أنه مخطئ، لأنه يُدرك السرَّ الحقيقيَّ للاحتفاء به، ولأنه اعتاد الاحتفاءَ به واعتبارَه الصورةَ المشتهاةَ للمثقف

من جمهوره، وبالتالي فإنَّ خسارةَ الحقيقة أهونُ عليه من خسارته لجمهوره، فمن سيشتري له كتاباً إذا غيّر موقفَه أو نقد ممارسة خاطئة لجمهوره أو حاول تغييرها، وهنا يغدو وجهاً آخراً لمرتزِق الفكر، لكن إلكترونياً، ولأننا في مجتمعاتنا محكومون بتابوهاتٍ ثلاث هي الدين والسياسة والجنس، والحديث في أي واحد منها هو حديث إشكالي قد يزيد المتابعين وقد ينقصهم، لذلك تتشكل أحزاب الفيسبوك ضمن رؤية واحدة، فالمؤمنون لا يكون ضمنَ حزبهم مُلحدٌ يُشهِرُ أفكارَه علناً، وكذلك السياسة فحين يقول أحدُ النخبة أمراً يتعلّق بالسياسة فلا تجد أحدًا من جمهوره يهتم بالبحث من ورائه عن صحة المعلومة ومصدرها، وإنما يكتفي بها كحقيقة مُطلَقة، وهذا ما نراه كثيراً إذ إن مشهوراً ما يكتب من خياله أمراً ما ويدّعي أنه معلومة وصلته من الغرف المغلقة، فتتلقفها العامة كحقيقةٍ مطلقةٍ واثقةً من قولِ مثقفِها الإلكتروني، ثم تنساها بمرور الوقت، وتنسى أن مثقفَها كان يكذب عليها، وأما الجنس فهو أهم مواضيع الشهرة السريعة، والمثال الفجُّ عليه بعضُ الحركات النسوية التي تقودها سورياتٌ مقيمات في الخارج تمردْنَ على الموروث وذهبنَ في منحى راديكالي عاطفي، فنجد في بعض هذا الحراك النسوي أن أهم المطالب هي حرية المرأة الجنسية دون البحث عن جذر المشكلة، وهو الأنثى في بلادنا، ودون الوعي بأن قضية الجنس وحريته للأنثى إنما هو نتيجة طبيعية ستأتي تبعًا لحرية قرار المرأة، فحرية قرار المرأة في عملها

ولباسها واختيار تخصصها الجامعي ومكان إقامتها وشريكها هو ما ينبغي أن يكون المحرك لبعض حركات النسوية لا الحديث عن الجنس أولاً، وعلى المرأة أن تعي أنها ليست مكافئة لأحد وليست هدية، إنما هي إنسان يريد مشاركة الرجل في المشاعر الإنسانية ومن ضمنها الجنسية دون أن تكون سلعة، لكن كيف بالإمكان حصد جمهور كبير دون إثارة إشكالية الجنس لدى المرأة رغم أن الإشكال الحقيقي هو حقوقها المنهوبة.

إذاً فسرعة المعلومة وسُرعة نسيانها أيضًا وعدم الاشتغال على البحث عن صحتها وتمييع المحتوى والتوق للشهرة عبر الدين، أو السياسة، أو الجنس، أو المحتوى المبتذل، والتطرف أبعدَ المسافة بين المثقف الذي لا يُهادن في الخطأ، المثقف الحقيقي، وبين جمهور وسائل التواصل الاجتماعي، وليس بالإمكان مخاطبة العقل؛ لأن الانفعال سمة تلك الوسائل ومسايرة الجمهور والخوف منه أهم من توعيته، ولربما جعلَه كلُّ ما سبق يرفع الراية البيضاء مستسلمًا لما يراه من عبث بالوعي وتغييبه.

أخيراً يبدو أنه لا فِكاك من هزيمة العقل في مواجهة جائحة وسائل التواصل الاجتماعي؛ فأن تطلب من الجمهور عدمَ متابعة أحدهم لمحتواه التافه فهذا أمر مستحيل، وأن تطلب من الجمهور عدمَ الانحياز العاطفي لأي حدث يجري هو أمر مستحيل أيضًا، وأن تطلب منه عدم تصديق مثقفه الذي يشاطره الموقف ذاته فهذا عصي على الإقناع، وأما أن

تطلب منه إغلاق وسائل التواصل الاجتماعي فهذا أمر لم يعد قابلاً للتطبيق لضرورة هذه الوسائل في حياتنا وأهميتها.

يبدو أن الشيء الوحيد الممكن طلبُه حالياً هو ألا نجعلَ من التافهين الكاذبين المتطرفين الذين يأكلون لحمَنا كلَّ يوم ووقتنا ودمعَنا رموزاً.

المثقف، السياسة، التبرير والتخوين

إن فكـرة الحـق المطلـق، الضـحية والجـلاد، الظـالم والمظلـوم، المُضطَهَد والمُضطَهِد، صاحب الحق والمُعتدي، كلّ تلك المفاهيم هي من توقد نار الحروب الأهلية، وإن الحاملين للبندقية يحشونها بالحقيقة المطلقة التي يزعمونها ليطلقوا رصاصاتهم بوجه الآخر الذي يحشو بندقيته بالحقيقة المطلقة التي يملكها أيضًا بسبب تلك الأفكار، أما من عليه أن يتصدى للحقيقة أو وهم الحقيقة فهم المثقفون الذين إذا تنازلوا عن كونهم مثقفين ليصبحوا سياسيين، وقاموا بتسليع الوهم وبيعه على أنه حلم قريب المنال، وإذا ارتضوا أن يكونوا كَذَبة لخيرهم الخاص فوقفوا على إحدى الضفاف يقذفون بالجهل في النهر ليزداد دمًا، وإذا توقفوا عن الانشغال والاشتغال بالأسئلة الصعبة، وصاروا مشغولين بالتبرير والتمويه والأجوبة الجاهزة المقولبة والمُعدَّة ضمن قالب واحد فعلى العقل السلام.

المثال الذي يُساق في هذا الفصل وما يليه هو الحرب السورية إذ تجلّى فيها تحولُ المثقف لسياسي، ويمكن أن تكون مثالاً صارخًا على المثقف الذي افتقدناه، ومثالًا أكيدًا على كمية التبرير والتسويق للخطأ والتخوين والتحيزات الفكرية والأخلاقية، وكذلك هي مثال على تمييع المصطلحات وتمويهها وعدم تحديدها وتعريفها التعريفَ الصحيح

للبناء عليها فيما بعد، إثر اندلاع الحرب أرادت العديد من دول العالم دخول ميدانها، كلٌ وفق مصالحه ورؤيته، فكانت بحاجة لساسة ولوجوه يراها الجمهور تتحدث باسمه، أو تدافع عن قضيته، الأمر الذي أدخل الكثير من المثقفين ميدانَ السياسة بطريقة أو بأخرى، فتماهى المثقفُ بالسياسي تماهياً جعله يريد تقديم ما تراه عيون جمهوره من صواب، لا ما يراه هو، الأمر الذي ذكرناه في فصل سابق من أن السياسي لا يعنيه وعي جمهوره ولا تثيره حماقته، بل ما يريد هو تأييدهم له، وهذا فارق كبير بينه وبين المثقف الذي صار سياسياً فغضَّ الطَّرْفَ عن اعتقاده في سبيل تحقيق اعتقاد الآخرين، وعدم تصويب أخطائهم ليحافظ على مكانته بينهم أو ليعلو بها، الأمر الذي أدّى لكوارث فيما بعد، ولأن ميدان المثقف يختلف جوهرياً عن ميدان السياسي؛ فإن منهج المثقف يختلف كذلك عن منهج السياسي، كما أن غاياتهما تختلف، فالمثقف يعنيه النهوض بالمجتمع من خلال بث الوعي والتحريض عليه وجعله قادراً على تحقيق ذاته بذاته، وتحقيق ما يريد بنفسه لا ما يريد له الآخرون، وبالتالي حمايته، وأما السياسي فلا يعنيه وعي الشعب وإنما قيادته لتحقيق ما يراه مناسباً هو للشعب أو لنفسه وبالتالي حماية نفسه، منهج المثقف يقوم على قراءة الواقعة وتفكيكها ومحاولة إيجاد أجوبة أو حلول عقلية بعيدة عن منطق الدم ومنطق الغريزة والعواطف ومنهج السياسي هو المصالح، وفي هذا يقول نصر حامد أبو زيد: **إن للفكر آلياته وأهدافه،**

وللسياسة آلياتها وأهدافها، ومن الخطر أن يتنازل الأول عن آلياته ليكون في خدمة الثاني حتى في حال تبني الدولة لمشروع فكري محدّد الملامح أيديولوجيًّا فواجب المفكر المنتمي إلى تلك الأيديولوجيا ألا يتنازل عن استقلاله ليبرر السلوك السياسي[20].

السياسة هي الشأن العام الذي ليس ثمة من أحد لا يُدلي برأي فيه سواء المثقف أو الإنسان العادي البسيط، فالسياسة حديث المنابر والشوارع معًا، وربما كان لهذا أسباب كثيرة من بينهما لعنة الجغرافيا التي نسكنها، تلك اللعنة التي أجبرتنا عبر التاريخ على أن نكون ميدانًا لصراع الممالك والدول، أو طرفًا في نزاعهما، الأمر الذي جعل من السياسة في بلداننا شأنًا عامًا لحساسيتنا وتأثرنا بكل ما يحيط بنا لوجودنا في نقطة تنازع بين آسيا وأوروبا وممالكهما القديمة والحديثة، ليس من مثقف من فريقي الحرب السورية لم يدخل المعتركَ السياسي باستثناء قلة قليلة انكفأت ومارست العزلة لنفسها بعدما لم ترَ في ما يحدث ذاتَها وأفكارَها، والسياسة مهنة تقوم على البراغماتية والمصالح وهو ما على المثقف أن يبتعد عنه، فالسياسي قد يمارس التمويه والخداع ودغدغة أحلام الشعب وإيهامه للوصول إلى غاياته، وهذا ما نجده في عبقرية تاريخية كنابليون الذي يُروى عنه أنه قال أمام مجلس الدولة الفرنسي:

(20) نصر حامد أبو زيد، إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1995، صفحة 53.

(لم أستطع إنهاء حرب الفاندي إلا بعد أن تظاهرت بأني كاثوليكي حقيقي، ولم أستطع الاستقرار في مصر إلا بعد أن تظاهرت بأنني مسلم تقي، وعندما تظاهرت بأني بابوي متطرف استطعت أن أكسب ثقة الكهنة في إيطاليا، ولو أنه أتيح لي أن أحكم شعبًا من اليهود لأعدت من جديد معبد سليمان)[21]. سواء أكان ما قاله نابليون صحيحًا أم رواية فهو إشارة قوية على آلية عمل السياسي التي هي أبعد من أن تهتم بوعي المجتمع ومصلحته، فالسياسي لديه برامج وخطط قد تنطلق من مصالح عامة كرغبته في النهوض بدولته، أو من مصالح شخصية كالمجد وتخليد ذكراه في صفحات التاريخ، وأيًا تكن تلك المصالح فهو يعتمد على الشعب بصورة عامة لولوجها، وبالتالي فديدنه المبدأ الميكافيلّيّ، ووسيلته الشعب للوصول لغايته، وهو لا يرى في بث الآمال والأوهام والأحلام المنطقية أو غير المنطقية للشعب من سوءٍ فيما يمارسه، وهو بالضرورة شخص مُطّلِع أو مثقف بجانب من الجوانب، لكن وعيه يكون لخدمة قضيته، وليست قضيته خدمة الوعي، ونحن لا ندّعي أن قضيته قد تكون غير محقة بالضرورة، لكن قد تكون غير واقعية أو عاطفية ورومانسية فجمال عبد الناصر كان يحلم بالمجد لمصر وللعرب دون شك، لكنه

(21) غوستاف لوبون، **سيكولوجية الجماهير**، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1991، صفحة 88.

أغرق المجتمع العربي بالوعود العاطفية عن النصر التي تبين أنها أوهام فانهارَ العربُ في أيام قليلة في هزيمة العام 1967.

ثمة فارق بسيط بين السلطة والمعارضة على صعيد الدور الوظيفي في أن السلطة لديها مثقفون وهم قد يكونون حراس عقيدتها، وقد يكونون مرتزقةَ فكرٍ لكنهم منفصلون تماماً عن عمل السلطة السياسي، وهم مجرد وسائل دفاع عن السلطة، إنهم إحدى الوسائل لتطويع جمهور السلطة وإقناعه بجدوى خيارات السلطة الدولية والاقتصادية والاجتماعية والمؤسساتية، وهذه الفكرة موجودة في كل دول العالم، أما في جانب معارضة السلطة فالمثقفون فيها قد ارتدوا ثياب الساسة فتماهى المثقف بالسياسي وصاروا يرددون ما ردده جمهورهم للحفاظ على مكانتهم ولم يعد هناك فكاك بين المثقفين وجمهورهم، بل صار المثقفون وسائلَ بيد الجمهور؛ ينطقون بما يريد خوفاً من تخوينهم الذي صار تهمة المخالف لما يريده الجمهور، ونذكُر جميعاً الشعارات التي رُفعت لتخوين هيئة التنسيق السورية لأنها أبدت رؤية تختلف عن رؤية الجمهور مع أن كليهما له الهدف ذاته كما يدَّعون.

كذلك أصبح البعض منهم أدواتٍ بيد الدول الفاعلة في الصراع السوري، فانتقل المثقف من دور السياسي لدور التابع السياسي يرى بعيون الدولة التي ترعاه لا بعيون ما يحتاج وطنه، وهذا الأمر قال فيه السيد هيثم مناع حول تشظي المعارضة وتحويل ولائها للرعاة: **لم يأتِ**

الشرخُ الأولُ فيما سُمّي «أصدقاء الشعب السوري» من أزمة الرباعية وتهاوش حكام الخليج على بلاد الشام، بل سبقها بتوجه أردوغان إلى موسكو وفتح حانوت جديد إيراني روسي تركي أصبح يعرف بالأستانة. ومنذ هذا التحول، لم يعد السلطان التركي على استعداد لتحمّل وكلاء الدول الأخرى في اسطنبول لذا ومنذ الأستانة، أصبح الائتلاف بكل معاني الكلمة الممثل السياسي للموقف التركي في الصراعات السورية[22].

على الصعيد العسكري أيضاً نجد فارقاً آخر ألا وهو أن الجيش في السلطة يخدم سياستها دون الدخول في سياستها أهي صحيحة أم خاطئة، أهي جلادة أم ضحية، أما المثقفون السياسيون المعارضون فكانوا في خدمة جيوشهم التي تعددت وانتشرت، ولم يستطيعوا توحيدها في جسد واحد، تلك الجيوش التي لم تتمتع يوماً بغطاء سياسي تعمل تحته، ولم يكن المثقفون السياسيون واجبي الإطاعة في جيوشهم، فالجيش الذي لا يتبع قيادة سياسية سيكون جيشاً مُنفلتاً لا ضوابط له ولا ضمانات له في عقد الصلح أو إقرار الحرب، إن هذا المشهد كرره التاريخ ثانية ففي القرن الثاني قبل الميلاد انتصرت روما على قرطاج النصرَ الأخير بعد أجيال من القتال بينهما (الحروب البونية) لكن أحد جنرالاتها الذي قاد المعركة الأخيرة وانتصر بها على هانيبعل القرطاجي في حقل زامة وهو

(22) موقع karkadan.net مقال بعنوان اللجنة الدستورية والفريق الأممي إلى أين؟، الدكتور هيثم مناع، تاريخ 10/ 9/ 2020.

سكيبيو الإفريقي قال في نقده لروما: إن الجيش في قرطاج كان يخدم السياسة، أما في روما فإن السياسة هي من تخدم الجيش. هذا المثال هو للمقارنة بين ما يجب أن يكون وبين ما هو كائن.

سبق وأنْ تحدّثنا أنَّ إحدى الأزمات الحقيقية التي نعاني منها هي تحويل المطالب لعقيدة، لكن ثمة أزمة أشد عمقًا تتجلى في السؤال التالي ألا وهو هل الثورة وسيلة أم غاية؟ أي هل هي وسيلة للرقي بالمجتمع ونفض غبار الجمود عنه وتحريك عجلة التاريخ قُدمًا وتطويره لتحقيق قيم العدالة والحق والحرية، أم هي غاية بحد ذاتها تجد المدافعين عنها يدافعون عن عالم مثالي في خيالهم اسمه الثورة.

إن المثقف الحقيقي ليس من مهمته خدمة السلطة والتملق لها، وكذلك ليس من مهمته مداهنة الشعب، بل مهمته الأساسية أن يوقظ فيه حس النقد، وحس الأخلاق التي لا يمكن أن تنحدر لسبب من الأسباب، ثم نبررها لتلك الأسباب، وهذا ما يجب أن يكونه المثقف، لكنه ليس ما هو كائن، وبالعودة لسؤالنا السابق هل الثورة وسيلة أم غاية، فإن كانت وسيلة فلا يجوز أن تُهدَرَ كرامة إنسان، والثورة تنادي بكرامات الناس، ولا يمكن قتل الآخر، وهي تنادي بحق الحياة، ولا يمكن اعتقال أحد لرأي قاله، وهي تنتقد السلطة لاعتقالها الناس على آرائهم، فإن هي فعلت كل ما سبق تكون غاية بحد ذاتها لا وسيلة لتغيير المجتمع، تكون قد تحولت لعقيدة لها حُراسها ولها مرتزقتها.

إن تمويه المثقفين واشتغالهم بالسياسة واندفاعهم برغباتهم وعواطفهم وميولهم للقصاص من الآخر والانتصار عليه جعلهم يداهنون ويتملقون جمهورهم ويكذبون على أنفسهم، إن الرغبات والعواطف لا مكان لها في تصويب الخطأ لأن الحق أولى أن يُقال من أن يُضمَر في الصدور خشية جمهور ما، سبق وأشرنا أن على المثقف الحقيقي أن يكون معارضاً للسلطة لا يهادن في الخطأ؛ لأن غايته الناس والمجتمع، وهذه هي رسالته الحقيقية، لكن ذلك لا يعني أن يبني موقفه من السلطة انطلاقاً من عواطفه الشخصية وميوله ورغباته لأنه في هذا إنما يسلك درب الشعراء الرومانسيين لا درب الإنسان المستعد لتقبّل رفض الآخرين في سبيل قول كلمة الحق، والمستعد لنقد السلطة ونقد جمهوره المخالف للسلطة معاً، إن فولتير لم يكسب رهان الحياة لأنه كان معارضاً للسلطة، بل لأنه تبنَّى قضايا أخلاقية إنسانية عظيمة كانت تخالف رأي الجمهور دون أن يهتم بمكانته وما يمكن أن يُقذَف به من تُهم كالذي جرى معه حينما تبنَّى قضية جون كالاس ودافع عنه، وكذلك حينما كان على خلاف مع جان جاك روسو إثر كتاب روسو رسالة في أصل التفاوت، لكن خلافه الفكري معه لم يمنعه من دعوته الصريحة للإقامة معه في مزرعته في فيرني -حين كان روسو هارباً- وقال قولته الشهيرة: أنا لا أتفق معك في كلمة واحدة مما قلته، ولكنني سأدافع عن حقك في الكلام وحرية التعبير عن أفكارك حتى الموت، أين هو المثقف

(الفولتيري) مما جرى عندنا؟ إن خوف مثقفينا على مكانتهم الجديدة، ولعبهم دور السياسيين ورغبتهم الشديدة بزوال السلطة أعمى بصيرتهم فزادوا في الحريق ولم يُنبِّهوا من الأخطار والأخطاء ولم ينتقدوها، بل برَّروها وأحيانًا كثيرة دعموها وأيدوها وكان تفكيرهم مُنصبًّا على زوال السلطة أيًا يكن الثمن وأيًا تكن النتيجة وأيًا يكن الفاعل، وهذا ألغى الفارق بين المثقف وجمهوره، ألغى الفارق بين العقل والرغبة.

فلنقرأ الآتي: «**طالما هي تقاتل النظام، ولا تخوض معارك ملتبسة أو مشوهة مثل الدولة الإسلامية، فأميل إلى اعتبارها قوة مقاومة، ولا أعتبرها تنظيمًا إرهابيًا، فهي بدأت كقوة مقاومة حقيقية، وأتمنى ألا تجنح كما يحدث الآن نحو التحول إلى قوة إرهابية**»[23]. هذا الحديث عن جبهة النصرة، وهو ليس لأحد النشطاء الإسلاميين أو حتى لمثقف إسلامي، إنما هو لميشيل كيلو أحد كبار المثقفين العلمانيين السوريين، الذي اعتبر جبهة النصرة قوة مقاومة، السؤال هو كيف لمثقف علماني أن يَغفلَ عن العقيدة الراديكالية لجبهة النصرة المُدرَجة على قوائم الإرهاب العالمية، والتي لو أُتيحَ لها النصرُ على السُّلطة هل كانت لتقبلَ بالمجتمع التعددي وبالقوانين المدنية وبحُرية الفرد الاجتماعية في ملبسه وطريقة حياته التي يُنادي بها؟ هل كانت لتقبلَ بالحرية التي ادّعتها الثورة، ربما كان السيد

(23) صحيفة النهار اللبنانية، 29 تشرين الأول 2014 هل يعتبر ميشال كيلو جبهة النصرة إرهابية، محمد نمر.

كيلو حالمـًا، أو يرى في الثورة فكرة رومانسية، أو ربما تحولت لعقيدة، لكن هذا الكلامَ لا يُمكن أن ينطقَ به مثقفٌ يعلم خطر الأيديولوجيات الراديكالية، إن هذا القولَ يندرج في خانة ما يطلبه وما يريده الجمهور، يمكننا أن نرى في رفض السيد معاذ الخطيب الذي كان رئيسـًا للمجلس الوطني السوري إدراج جبهة النصرة على قوائم الإرهاب أنه يمتلك الأساس الفكري لجبهة النصرة نفسه، لكن أن يكون عاملاً بالشأن العام، ورئيس أعلى هيئةٍ معارِضة للسلطة المفترض أنها تمثّل كلَّ السوريين من كل الأطياف فلا يجوز له إطلاقـًا دعم فصيل راديكالي يُلغي حقَّ الآخر، فإذا كان رغبته بالتخلص من الاستبداد السياسي فهذا لا يعني إطلاقـًا دعمَ استبداد سياسي واجتماعي معـًا المتمثل بجبهة النصرة وما يشابهها من فصائل إسلامية راديكالية، هذا الفكر الرومانسي القائم على اعتبار العقيدة الراديكالية التي لا تؤمن بحرية وتعددية هي قوة مقاومة، ولا يمكن في سبيل الانتصار على الخصم أن أتنازل وأقبل بأي مُساند دون الالتفات لهدفه وغايته وعقيدته وأفكاره لا يمكن لمثقف حُصْنُه الأساسيُّ حريةُ الرأي والتعبير أن يقبَلَ دعمَ جهة تكمِّم الأفواهَ المخالِفة.

إن سياسية التبرير ينبغي أن تكون مرفوضة بشكل كامل، لا يُبرر خطأً أو جريمة يرتكبها الجمهورُ، وعلى المثقف أن يكون مستعداً للوقوف في وجه العالَم ليقول ما يخالفهم بكل شجاعة، لا يهادن فهو ليس موظفـًا وليس عاملاً لدى جمهوره، بل هو العاملُ بالشأن العام، الحريصُ على

حياة الناس وخيرهم لا على نفسه ومكانته، الحريصُ على قِيَمه الحقيقية في الحق والخير والعدالة والمساواة والحرية، الحريص على القِيَم الأخلاقية العالية، ومهما كان ما تعرَّض له المثقف من اضطهاد الطَّرف الآخَر، أو ما تعرَّض له جمهوره من اضطهاد فهذا لا يعفيه من مهمة الكشف عن جرائم جمهوره التي ارتكبها، أو التي من الممكن أن يرتكبها بحق الآخر المُخالِف؛ لأنه حين يكون مخاصمًا للسلطة التي يدّعي جَورَها وظلمَها عليه أن يكون أكثر نُبْلاً وعدالةً، وإلا كانت الحرب بينهما للأقوى والأجدر في حفظ مجتمعه وجمهوره.

إن سياسة التخوين في عالَم المثقّفين ينبغي أن تكون مرفوضة تمامًا؛ لأن الصراعَ لديهم هو صراعُ أفكارٍ، وجهاتُ نظَرٍ، كلٌّ يرى الحقَّ بجانب فكرته لا ينبغي التحريض على الآخَر لكونه مختلفًا، ولا ينبغي طلبُ اغتياله لأنه حين يرتكب المثقف هذا الفعلَ يكون قد تخَّلى عن رسالته في حماية حق التعبير والحرية، ويكون قد جعل من أفكاره أوثانًا مُقدَّسة، وبالتالي ينبغي تحطيم هذه الأوثان، وعليه؛ لا يجوز له أن يؤمن بربٍ سياسي واحد، بل أن يؤمن بفكرةِ أنَّ السياسة وسيلة للارتقاء بالشعب، وليست غاية أيضًا حالها حال الثورة، وفي الخلاف السياسي لا يجوز أن ينتهي بطعن الآخر وقذفه بالخيانة هذا الفعل الذي ارتكبه مثقفو السلطة بقذفهم كلَّ معارضٍ لسلطتهم بالخيانة والعمالة والارتزاق لدول خارجية، وقد يكون في هذا شيء من الصحة، لكن لا يجوز تعميمه في

عالَم المثقفين، وكما فعل مثقفو السلطة فعل مثقفو المعارضة، فلم يكتفوا بقذف السلطة بالخيانة، بل لم ينجُ من هذه التهمة حتى المعارضون للسلطة المختلفون معهم فكريًا فاتهموهم بالعمالة لها، وجميعنا نتذكر بعد أشهر قليلة من بدء الحرب بدأ جمهور الثورة يُقسِّم نفسَه وفقَ أجندات رغباته، والجمهور الذي نزل الشارع وكأنه على قلْبٍ واحد أصبح جماهيرَ متفرقةً يقذف بالخيانة بعضُها البعضَ، وليس أدلَّ على ما نقوله غير غزوة البَيْض الشهيرة بالقاهرة في تشرين الثاني 2011، التي قام جمهور الثورة فيها بقذفِ البَيْض على معارضين سوريين لهم تاريخُهم لمنعهم من دخول مبنى الجامعة العربية بحُجج أن هؤلاء (خونة اشتراهم النظام) أو كما قال ممثل هيئة تنسيقيات الثورة السورية: «**هذا الوفد لا يمثل الثورة السورية، فقد مَرُّوا على دمشق قبل أن يأتوا ليحصلوا على التعليمات من النظام**»[24] في مقال نُشر بتاريخ 10 نوفمبر 2011 في الشرق الأوسط والسبب أن ما قاله هؤلاء المعارضون من أنهم ضد العنف والطائفية والتدخل الخارجي لم يناسب الشريحة الأضخم ثوريًا، أو لم يناسب الآلة الثقافية الإعلامية والبشرية التي كانت محرِّضة لهذا الجمهور الذي اقترف ما اقترفه لمجرد اختلاف منهج التعاطي مع الأحداث لا لاختلافٍ في فكرة الثورة.

---

(24)https://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&article=649221&issueno=12035#.XNVFkBRvbIU

في النهاية فإن المثقف عليه أن يُبقي على مسافة بينه وبين السياسة، وإن سلكَ دربَ السياسة عليه أن يجعلها في خدمة قضيته، وقضيته الأصيلة هي خدمة الوعي، وبالتالي فإن منهج تخوين الخصم (الـ هم) ليس من واجبات المثقف، ولا يؤدي إلى هدف، وكذلك منهج التبرير لـ (الـ نحن) ليس من واجبات المثقف، ولا ينبغي أن يكون وسيلة تعمية عن رؤية الحقيقة ووصفها، ورفض الجرائم إذا ارتُكبت، وبالتالي لا يمكن بهدف تحقيق غاية أن يمارس المثقف دور الأعمى عن حقيقة هي أشد خطراً، وذلك لكسب رضا الجمهور فيحطَّ من قَدْرِ وعيه لمصلحة الجمهور، أو رضا دول ومنظمات وشركات تساهم بفاعلية في أحداث مجتمعه، فيحطَّ من قَدْر أخلاقه وضميره الذي ينبغي أن لا يكون له انتماء غير إنسانية الإنسان وحياته وكرامته، وللأسف يبدو أننا إذا ما أردنا مثقفاً حقيقياً علينا ألا نجعلَه سياسياً؛ لأنه حين يغدو كذلك فإنه يلعب لعبة المصالح والعواطف ويمارس شيطنة الـ هم وتبرئة الـ نحن، وفي هذا نبتعد عن أن نكون شعباً واحداً وقوداً للحرب، وفي هذا السياق كتب محمود درويش حكمة عظيمة فقال: سنصير شعباً حين نعلم أننا لسنا ملائكة، وأن الشرَّ ليس من اختصاص الآخرين.

محنة المثقف

(استبداد الأفكار)

إن الأفكار هي التصور المثالي لواقع أفضل، ونتيجةً للواقع المُحبِط الذي يعيشه المثقف يومًا بعد يوم، والذي لا يشابه فكرته، فإنه كلما ازداد واقعُه سوءاً ازدادت مِنعةُ وصلابةُ أفكاره، حتى تغدوَ في أحيانٍ كثيرةٍ سجنَه الذي يعيش فيه، خاصة إذا أهملَ عامِلَ الزمن في تطبيق الفكرة أو تعميمها، إن من أزمات المُفكِّر ليس خلقُهُ الأفكارَ، بل جعلُها السجنَ الذي يسكنُه، وتتجلى الأزمة حين تكون الأفكار غير واقعية، الأمر الذي يؤدي إلى استحالتها، فتغدو للفكرة سلطةٌ على صاحبها تستحوذ عليه لا يستطيع الفِكاكَ منها، وكلما كانت قابليتُها للتطبيق بعيدةً اشتدت سيطرتُها عليه دون أن يُدركَ أن الفكرةَ بقدر ما تؤثر فهي تتأثر بالواقع الذي تنوي تغييره، ومن نتائج هذا التناقض بين سيطرة الأفكار وصلابة الواقع أن يجد المثقفُ نفسَه يحيا في منفى أو في تطرف دون محاولة إيجاد آلية إنقاذ من الغرق بين الحالتين، إنه يوجِّه الفكرةَ في الطريق الذي يريد دون اعتبار لإرادة الواقع، وفي هذا يخلُق وهمًا يُصبح عبداً له، فلا يحاول أن يجعل الفكرةَ بذرة تنمو في واقعه شيئًا فشيئًا حتى تسودَ الحقلَ، بل يرى أنها يجب أن تسودَ لأنها الخيرَ العامَّ، ولأنها في صالح المجتمع مُهملاً الزمنَ الكفيلَ بجعلها تنضج، وبالتالي فهو قد يعيش العزلةَ والمنفى الاختياريَّ

ويتنازل عن دوره في نشر الوعي لإحباطه من واقع لا يتغير، فيقرر اعتزالَه وعيشَ حياته وأفكاره منفرداً، فلا يؤثّر ولا يتأثّر بغيره، وهنا يصير ضحيةَ إرادة مجتمع لم يقدِرْ على متابعة صراعه معها، أو على النقيض من ذلك قد يصير متطرفاً ذلك أن إرادة الواقع تتحكم بها السياسة والجغرافيا وأيديولوجيا المجتمع ووعيه وفئاته والإعلام والنُخب والأفكار، لذلك فإن تغييرها يحتاج وقتاً ليس بالهيّن، والفكرة التي تُقذَفُ في المجتمع قد لا تؤتي أُكلَها إلا بعد عشراتِ وعشراتِ السنين، وبالتالي فإن المثقفَ عليه أن يكون حذراً في تطلعاته، فلا يتعصبُ لأفكاره ويغدو عبداً لها، والتي قد تكون بعيدة كل البعد عن التطبيق، فيحاول فرضَها بالقوة إذا ما أُتيح له ذلك؛ لأنه في هذا إنما يحوِّلُ دورَه من الساعي لنشر الوعي إلى المستبد الذي يريد فرضَ رؤيته كيفما كانت السُبُل، فيتخلى عن رسالته الإنسانية ويُشابه السياسيَّ الذي يريد نجاح قضيته على حساب مخالفيه وإن كانوا مُخطئين وفي هذا تكون خيانته لرسالته، إن رؤيتَه للحقيقة وترويجَها وخَلْقَ حالة من الوعي بها هي مهمتُه الأساسية، وليست مهمتُه فرضَها بالقوة؛ لأن اصطدامَه بإرادة الواقع قد يجعل فكرته تتقهقر وتؤدي لنتائج عكسية، مهمته إرشاد المجتمع لا تطويقه وإخبار الناس كيف ينهضون بأنفسهم، لا إكراههم على ما يراه نهوضاً لهم، مهمته نشْرُ الوعي لا فرضه بالقوة ولا اعتزال المهمة.

إن ما يجعل المثقف عبداً لفكرته هو أنه يرى في نفسه مُنقذاً للمجتمع، فصار نرجسيـًا، ويأتي نتيجة الفشل في مواجهة إرادة الواقع والهزيمة أمامه، وكذلك فهو يأتي نتيجة أدلجة الحقيقة لتصبح عقيدة، وبالتالي فإنه يرى في تحقيق ما يفكر فيه الصواب، وترتدي الفكرة ثوب الهوية التي يصير القتل باسمها فعلاً يُبرَّرُ ويُجازى بالمديح، وتغدو أزمةُ المثقف في أفكاره قبل أي شيء آخر، في عيشه في زنزانة أفكاره واعتبارها المثالَ الذي ينبغي فرضُه واقعـًا، فتصير رغبتُه بتغيير الواقع تبعـًا لأفكاره تُنتج واقعـًا أكثرَ مرارة، ويؤدي بالضرورة لنفي الآخرين من واقعه الذي يريد، وإن كان النقدُ والمعرفة هما أدوات المثقَّف فإنه بسلوكه منحى التطرف بأفكاره يلغي حقَّ الآخر بالنقد ويهدم بنيان الحرية، فأسبابُ تطرُّف المثقَّف هو تخلّيه عن مبادئ الحرية والعدالة والوعي باعتبارها تابوهات ثلاث ينبغي أن تكون سماءَ المثقَّف يمارس تحتها ما يشاء من أفكار، لكن دون المساس بسمائه أو التخلّي عنها لأنه إن تخلَّى عنها تحوَّل لطاغية يمنع حقَّ النَقْد عن غيره.

إن للأفكار سلطة يُساعدها المثقفُ في الاستحواذ على ذاته وذلك من خلال توجيهه لها حيث رغباته تقوده وحيث يدّعي امتلاكَ الحقيقة، فالمثقف اللاديني مثلاً لا ينبغي له نَقْدُ إيمانِ شخصٍ بعقيدة ما طالما أنَّ هذا الإيمانَ فرديٌّ لا يُفرَضُ على آخرين، ولا يجوز له التهكُّم على طقوس الفرد الإيمانية أيـًا يكن ما يؤمن به، وكذلك المثقَّف الديني لا

ينبغي له نَقْدُ المخالفين لِدِينه، ومحاولةُ فَرْضِ إيمانه على المجتمع وجعله قانونًا عامًا، ولذلك فبدلاً من أن يكون للتفكير آليةٌ ومنهجية تقوم على دراسة الواقع وتفكيكه ومحاوله تحليل ظروفه لإيجاد حلول له وتغييره يُصبح التفكيرُ متحيّزاً لفكرة ما وموجّهًا لها، ويصبح جوابُ بماذا نفكِّر أهمَّ من جواب كيف نفكر ولماذا نفكر، وهنا يكمُن خطأُ التفكير منذ ولادتنا؛ إذ إنَّ الأهلَ يُعلّمون أبناءهم بماذا عليهم أن يُفكّروا، وليس لماذا عليهم أن يُفكروا وكيف تكون آلياتُ التفكير الحرِّ، فحين يُتَحدَّثُ عن الديمقراطية باعتبارها ضرورةً، فهذا يكون جواب بماذا نفكر؛ أي أننا نفكِّر بالديمقراطية باعتبارها نظامَ حُكْمٍ، لكن حين يكون الحديثُ بأن الديمقراطيةَ هي سبيلُ عَيْش المجتمع بضمانة القانون وباختيارات أفراده الذين يُحاسَبون على أفعالهم لا على أقوالهم، فإن هذا يكون جواب لماذا نفكّر، أما إذا قلنا بأن الحُكْمَ الديمقراطيَّ هو أفضلُ أنواعِ الحُكْم الموجودة لكن مازال فيه ثغرات، وينبغي البحث عن نظام حُكم أفضل منه، فهذا يكون جواب كيف نفكر؛ أي كيف نكتشف ثغرات هذا النظام، وكيف علينا إصلاحها وترميمها، فليس مهمًا أن نفكر بالشيء بقَدْر ما هو مهمٌّ التفكيرُ بلماذا هذا الشيء، وكيف ينبغي أن يكون، أي السعي لعمق الفكرة.

يجتمع كلُّ الناس على مفاهيم جميلة لكنهم يختلفون في تعريفها وتحديدها، وهذا يوقعهم في أزمة المصطلحات، فمثلاً ينادي الجميع

بالحرية والحفاظ على الدولة ومؤسساتها، لكن معنى هذه المفردات يختلف تطبيقُه وفق آراء الناس وتوجّهاتهم، ولذلك فإن سموَّ الأفكار حين نحاول فرضها قسراً وبالقوة وفق ما نراه نحن أصحاب الحقيقة المُطلَقة ينزع عنها صفتَها السامية، فإذا أردتُ الحرية فليس السبيل لأجل تحقيقها أن أمنع الحرية عن الذين يخالفون منطقي، وأُجبرهم على ما أراه بوصفه الحقيقة المُطلقة وأراه خيرًا للجميع، بل يكون بنشْر لماذا نريد الحرية، وما هي الحرية التي نُريدها، ومعاملة المخالفين بمنطق الحرية الذي نطلبه، وإلا صارت مطيةً لتحقيق أهداف لا علاقة لها بالحرية، وإذا ادّعيتُ الحفاظَ على بنيان الدولة ومؤسساتها فهذا المطلب مُشترك لكافة أبناء الدولة أيضًا، ولكن حين أقوم بحجز حرية المخالفين لرؤيتي في آلية الحفاظ على مؤسسات الدولة، أو تجريمهم ووسمهم بالخيانة، واعتبار أنهم يُضعِفون نفسيةَ الأمَّة، فإنما أكون بهذا الفعل أهدمُ بنيانَ الدولة ككل بإلغاء كل من لا يوافق رؤيتي، من هنا ينبغي تعريف وتحديد المصطلحات قبل الحديث عنها والدفاع عنها والتحريض على الآخر بسببها، الأهم ألا نجعلَ المفرداتِ غيرَ المُعرَّفة والمحدَّدة عقائدَ.

إن خيرَ مثال يُقدَّم على سيطرة الفكرة واستبدادها هو الحريةُ التي نادى بها جمهورُ المعارضة للمطالبة برحيل السلطة، وكانت هذه المفردة هي تسويق بماذا علينا أن نُفكر، أي أن نُفكّر بالحرية لأن السلطة تمنعها عنا، وبالتالي ينبغي رحيلها، وصارت كلمةُ الحرية عقيدةً عند جمهور

المعارضة، ومسبَّةً عند جمهور السُلطة مما جعل هذه الكلمةَ تفقد معناها من حيث هي قيمة عُليا، وتحت هذه الكلمة مُورِسَ التمويه للحقائق والتبريرُ للأخطاء، وهذا كان من بين الأسباب الكثيرة التي أوقعت أكثرَ من نصف مليون قتيل وملايين اللاجئين الذين كانوا يستمعون لتمويهات المثقفين الذين يريدون تحقيقَ الحرية - إسقاط السلطة (العقيدة) - مهما كانت التكلفة كإيهام الشعب بقُرب سقوط السلطة، وإيهامهم بتدخلٍ دوليّ خارجيّ لتحقيق هدفهم، وتسويق العنف دون التحذير من نتائجه، وعدم محاولة إيقاظ وعي جمهورهم بما هو صواب وما هو خطأ، وتحريضهم على الآخَر، وفي هذا الشأن يقول خالد المحاميد في مقال له على موقع رأي اليوم: إنَّ الخطأ الأول أنَّ **المعارضة اعتمدت مصطلحًا هلاميًا أزال الفارق بين الجيش الحر والتنظيمات المتطرفة هو (المقاومة المسلحة)، والخطأ الثاني كان في مؤتمر الدوحة الذي تأسَّس فيه الائتلاف تصرَّف الحاضرون كأن النظام قد انتهى، ولهذا وضعوا في مرتكزات مشروعهم رفضَ الحوار والتفاوض**[25]. إضافة لما يقوله هيثم مناع من **تطبيعهم (المعارضة) مع فكرة التدخل الخارجي عوضًا عن بناء مرتكزات وطنية سورية، وأن العنف في كل تجارب الشعوب يخلق**

(25) الدكتور خالد المحاميد، مقال بعد فشل المعارضة ما العمل؟، صحيفة رأي اليوم الإلكترونية، تاريخ 27/ 8/ 2017.

الأشرار وتجار الحروب أكثر مما يقتل[26]. ولهذا فقد أصبح أغلبُ مثقفي المعارضة يعيشون في قوقعة الحرية مشغولين بسؤال ماذا نريد، لا كيف ولماذا نريده.

إن سُلطة الفكرة حين تغدو مستحوِذَة على المثقف ومسيطرة عليه فإنها تحيلُه إلى منفي أو متطرف كما أسلفنا سابقًا، لكنها حين تستحوذ على المجتمع تكون حاملاً لتغييره وقوةً دافعة لذلك، فكما أن المثقف يُخطئ بإحباطه واعتزاله فهو كذلك يُخطئ إذا ارتدى ثياب رجل الأمن وأخذ دوره في محاولة فرض سطوته بالقوة على الناس، فلا يجب أن يؤخَذَ بما يؤخَذُ به الجمهورُ العاديُّ، وعليه أن يكون حذراً بتوصيف الخصم، لكن لا يجوز له إطلاقُ صفاتٍ تنفي الآخرين لمجرد اختلافه معهم برؤية الواقع بما هو كائن وما عليه أن يكون، والفكرة تسيطر حين تغدو مفهومًا مجرَّداً يسعى صاحبُها لتطبيقها بأي وسيلة باعتبارها غاية، فلا يمكن أن يؤمن المثقفُ بالحرية وهو يتهمُ غيرَه بالخيانة لفكرة لا توائمه، وتكمن خطورة سيطرة الفكرة حين تغدو حقيقة وعقيدة ويُلغى معها قابلية النَقْد، وهذا ما اقترفه الكثيرُ من مثقفي الحرب السورية.

هو وهمُ النخبة كما يروّج له علي حرب في كتابه (نقد المثقف) إذ يرى أن المثقف يعدُّ نفسَه وصيًا على الحرية والثورة، وفي هذا يعيش وهمَ

(26) الدكتور هيثم مناع، انهيار المعارضة الرسمية وضرورات المؤتمر الوطني السوري، ندوة 16/ 7/ 2020 منشورة على موقع karkadan.net.

النخبة، لكن الحقيقة أنَّ المثقف عليه أن يعدَّ نفسَه وصيـًا وحارسـًا ليس لمجتمعه فحسب، بل للقِيَم الأخلاقية السامية وللحقوق والحريات، فإنْ لم يعدّ نفسَه كذلك فكيف له أن يكون مثقفـًا يدافع عن الإنسانية جمعاء وعن قيم الحق والخير، لكنه حين يتكلم عن وقوع المثقف أسيرَ أفكاره، وهو ما ذكرناه سابقـًا من أن أفكارَ المثقف تغدو هوية وعقيدة يبذل في سبيل تحقيقها الممكن واللا ممكن متخليـًا عن سمائه المتمثلة في مبادئ الحرية والعدالة والوعي، فإن هكذا مثقفين إنما هم **طالبو حرية لكي يمارسوا الاستبداد**[27]، ونضيف على ذلك أنهم في طلبهم للحرية يمارسون الاستبداد، هو وهمُ النخبة، واستبداد الفكرة في صاحبها وجعلها عقيدة.

(27) علي حرب، نقد المثقف، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، 2004، صفحة98.

صناعة المثقف

في بداية الحرب السورية اعتاد الشعبُ على التسمُّر ساعاتٍ أمام الشاشات الإخبارية لتلقي معلومات عما يجري، ولسماع تحليلات سياسية ولرؤية وجوه ابتدعتها واختلقتها آلةُ الإعلام الضخمة، وربما استخدمت هذه الآلة وجوهًا معروفة لتسويق ما تريده بمسميات كثيرة قُدِّمت لنا دون التأكّد من مصداقية تلك الصفة، لأن تلك الصفات بشكل عام تكون غير أكاديمية، فالناشط السياسي مقولة قد تنطبق على كل فرد يتابع نشرات الأخبار، لكن ذلك لا يعني أن يكون لديه رؤية تحليلية ونقدية أو رؤية سياسية، وكانت تلك الوجوه تُفنِّد رؤيتها لأي حَدَث بما يناسب الموقعَ الذي هي فيه، والمكانَ الذي تتكلم منه بغية تشويه الحقيقة، وتضليل الشعب، ولا أعتقد أنهم كانوا يُختَارون جُزافًا، لست أقصد هنا المثقفين الذين بالفعل لهم ماضٍ في البحث والكتابة والنقد وإنْ تحوَّل بعضُهم (ردَّاحًا)، إنما أقصد صناعة المثقف الذي خلقته الآلة الثقافية الكبيرة (الإعلام)، والذي لم يكن له سابقًا أيُّ نشاط ثقافي يُذكَر باستثناء أحاديثه مع أصدقائه في الحانات أو المقاهي، كان على هذا المثقف المُصَنَّع أن يتحلَّى ببعض المواصفات من أهمها العبث بالكلمات، وأعني العبثَ تحديداً لأنه لا توجد مفردة قادرة على ضبط معنى ما كانوا يقولونه غيرها، وإذا ما اقتبسنا مقولة ابن الراوندي الشهيرة

بـأن الأنبيـاء اسـتعبدوا النـاسَ بالطلاسـم لنحيلهـا علـى هـؤلاء فسـيكون اقتباسـًا مناسـبًا لهـم، فهـؤلاء المثقفـون المُصـنَّعون ضـلَّلوا النـاسَ بالطلاسم، فتراهم يقذفون بكلمات غير مفهومة وغير ذات معنى قد تشي للإنسان البسيط بعمق فِكر قائلها فيصغي له ويتأمل في حديثه غير المفهوم ليؤسس أن فكرتـه صـحيحة ويـدعم إيمانـه بفكرتـه مـن خـلال حـديث المثقف إعلاميًا.

لكل إنسان أفكار عن كل شيء لكنه يحتاج دائمًا إلى تدعيمها من خلال الأمثلة، أو من خلال الواقع، أو من خلال كلمات يقرأها في كتاب أو يسمعها من مثقف، وهذا البحث عمّا يطابق أفكارَ الإنسان هو تحيُّز لفكرته التي يريد تصديقها، وإن ما يقتل الوعي في الإنسان هو تدعيمه لأفكاره الأولية القبلية أو الموروثة أو المُعدَّة سلفًا لا إعادة التفكير فيها، وإن ما ينهض بالوعي هو إعادة تشييد البناء الفكري للإنسان ذاتيًا لا تدعيم البناء القبلي بوسائل حديثة، وهذا ما يطابق الحقيقة والواقع، يقول فرنسيس بيكون في كتابه (الأورغانون الجديد): **إن من دأب الفهم البشري عندما يتبنى رأيًا (سواء لأنه الرأي السائد أو لأنه يروقه ويسرُّه) أن يقسر كل شيء عداه على أن يؤيده ويتفق معه، ورغم أنه قد تكون هناك شواهد أكثر عدداً وثِقلاً تقف على النقيض من هذا الرأي فإنه إما أن يهملَ هذه**

الشواهدَ السلبية ويستخفَّ بها، وإما أنه يختلق تفرقة تسوّل له أن يزيحَها ويستخفَّ بها لكي يخلُصَ إلى أن استنتاجاته الأولى ما زالت سليمة[28].

هؤلاء المثقفون المصنوعون والمُنتَجُون في أروقة الإعلام وُجِدوا لتدعيم رأي جمهورهم بأنه على حق ولشيطنة الطرف الآخر، هذه مُهمتهم وقد ارتضَوا بلعب هذا الدور عمداً أو سهواً، فهؤلاء يُجيدون العبثَ بالكلمات، ويُجيدون تمويهَ الحقائق، ولا غاية لهم غير منفعتهم الشخصية، ولا رسالة لهم غير تدعيم رأي جمهورهم بالطلاسم والكذب والأوهام والخداع، فقد صُنِّعوا واختُلِقوا ليساعدوا في حصول القطيعة النهائية مع الجانب الآخر، وفي تغييب العقل أو توجيهه للأفكار التي يريدون ترويجَها ونشرَها، وهو ما يُذكّرنا بما قاله ديكارت من أن **(اختلاف آرائنا لا ينشأ من أن البعضَ أعقلُ من البعض الآخر، وإنما ينشأ من أننا نوجّه أفكارَنا في طريق مختلفة، ولا ينظرُ كلٌّ منا في نفس ما ينظرُ فيه الآخر، لأنه لا يكفي للمرء عقلٌ بل المهم هو أن يُحسِن استخدامَه)**[29].

وهؤلاء المثقفون المُصنَّعون كانوا يؤسسون لتغييب العقل، لتوجيهه صوبَ ما يريدون من أفكار لجمهور لا يريدون له أن يُحسِنَ استخدامَ

---

(28) فرنسيس بيكون، **الأورغانون الجديد**، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، طبعة أولى، 2013، صفحة 32.

(29) رينيه ديكارت، **مقال في المنهج**، ترجمة محمود الخضيري، دار الكاتب العربي القاهرة، الطبعة الثانية، 1968، صفحة 109.

عقله في كل ما يجري، كانوا يدفعون الشعبَ لإجابتهم على سؤال بماذا نفكر وليس لماذا نفكر به، كانوا يمارسون تحريضَ القطيع (جمهورهم) خوفاً من الذئب (الآخر) الذي إنْ انتصرَ سيأكلهم، فتمَّ تغليبُ نزعة البقاء تحت أفيون الخوف والحقد وتمَّ الاتفاقُ على أن كلَّ يدٍ ممدودة للآخر يجب أن تُقطَع، وهذا ما كان، فقاموا بتخوين الآخر وتشريح عمالته للخارج، وتمَّت التوطئة لسياسة الصراع الوجودي معه، متغافلين عن أنه في الحروب الأهلية - والتي أُفضِّل هذه التسمية على غيرها - ستنتهي الحرب أخيراً، ولابدَّ للجميع من أن يعودوا للحياة معاً.

إذا ما فهمنا أن المؤسسات الإعلامية التي خلقت هذه الحالة من المثقفين الوهميين لديها سياساتٌ تقتضي عمليةَ الخَلْق هذه، فالسؤالُ هو لماذا ارتضى هؤلاء تصديرَ أنفسهم بالشكل الذي شاهدناه ونشاهده؟ أو لماذا مارسوا النفاق؟ ولماذا جعلوا من أنفسهم أدواتٍ يَسهُل استخدامُها؟

إنه النفاق والتفكير النفعي، وهو سِمة طاغية، وكثيراً ما نرى في مشاهداتنا اليومية حجمَ النفاق الاجتماعي الذي نعيشه، فمثلاً؛ ما أكثرَ ما نرى الموظفَ يتملّقُ رئيسَه الذي بدوره يتملّق مَن هو أعلى منه درجة وهكذا في متتالية نراها في المجالات الحياتية والاجتماعية كافة، وللفساد المؤسساتي لاشك دورٌ كبير بذلك، فيكون مقياس الترقية أو الشهرة مثلاً هو البراعة في التملُّق لا في الكفاءة، وإن نفاقَ المثقفين ليس بعيداً عن

الوسط المجتمعي الذي يعيشونه، لكنه الأخطر؛ لأنه تسويق (ثقافوي) للخطأ على أنه صواب، وللكذب على أنه حقيقة، والنفاق هو قول ما لا تؤمن به، ولا يحصل إلا طمعاً في مغْنَم أو خوفاً من خسارة.

إذا ما عددنا الطمعَ بالمكاسب والنظرةَ النفعية للحرب قادت هؤلاء لتمثيل هذا الدور دون إغفال أن بعضَهم قد تعزّز لديهم الإحساسُ بأنهم مؤثِّرين فتقمصوا دورَ المثقف وراهنوا على بساطة جمهورهم وانفعالاته لتقديم وجهة نظرهم على أنها الحقيقة وذلك بقولبة الحدث وابتداع كلمات وروايات محض اختراعهم، هؤلاء يؤطّرون ما هو مُفكَرٌ فيه من جمهورهم، ولا يفتحون أبوابَ غير المُفكَّر فيه خشية إعمال العقل، إنَّ النفاقَ الذي يمارسونه ينبغي دراسته علمياً ونفسياً، إذ كيف لأحد أن يرتضيَ أن يتملقَ وينافقَ ويموّهَ الواقعَ دون أن يشعرَ بالعار من أن ما يفعله يودي بحياة الكثير، ويخلق هوةً هائلةً بين الشعب، وهو إنما ينافقُ لمصالح شخصية فقط، إنَّ الكثيرَ من جمهور الحرب السورية يستميتُ في الدفاع عن فريقه لبساطته لا لتحقيق المكاسب، فهم يؤمنون بأن وقوفهم لهذا الجانب أو ذاك هو وقوفٌ مع الحقِّ، وبتخاذلهم فهم يؤسّسون لنجاح الباطل والظالم وهؤلاء هم حُطام الحرب الذين أحرقتهم نارُها، وهؤلاء هم من زُيِّفَ وعيُهم ليحقّقَ مَن يتصدّرون الشاشات المكاسبَ وما يطمعون إليه، لم تمرّ فترةٌ من التاريخ إلا وكان النفاقُ أحدَ أوجه الحياة السياسية فيه مارس المنافقون وظيفتهم بدعم المنتصر والمثابرة

على استمراره إلى أن ينقلبَ الوضعُ فينافقون المنتصرَ الجديد، ولو قُيِّضَ لفريق أن ينهزمَ وتتوقفَ مكاسبُه، لرأيتَ هؤلاء الذين صُنِعوا ينقلبون فوراً إلى ضفة المنتصر، ويتركون الخاسرَ يواجهُ مصيرَه، وسأورد هنا مثالاً متجذّراً بالعقل الجمعيّ عن سمة النفاق طمعاً بالمغنم والمكسب، أو خوفاً من الخسارة، لا يأتي أحدٌ على ذِكْر عبد الله بنِ أُبَيّ بنِ سَلول إلا وتأتي مفردةُ المنافق مرادفةً له، وعبد الله هذا كان زعيمَ الخزرج، وهو رجلُ حَرْب ادّعى إيمانَه برسالة النبيّ طمعاً ربما في مغنَم أو إمارة، ولم يكن إيمانُه حقيقياً؛ ربما لأنه كان واقعياً لم يتبعِ الأوهامَ، ولم يبعِ الأوهامَ لرجاله في لحظة لا تحتمل النفاقَ لأن خسارةَ تلك اللحظة كانت خسارته أيضاً، وحدَثَ ما أُطلقَ عليه صفة المنافق يومَ معركة أُحُد، فبعد خروج قريش لملاقاة المسلمين بعد هزيمة بدرٍ الكبرى انقسمَ المسلمون فيما بينهم فكان رأيُ المتحمّسين أن يخرجوا خارجَ المدينة للقتال، وكان رأيُ البعض وعلى رأسهم ابن سَلول أن يبقَوا في المدينة للقتال، فبالبقاء في المدينة تغدو المعركةُ تميلُ معنوياً للمسلمين، فإن خسروها خسروا كلَّ شيء بيوتهم ونسائهم، وهذا يكفي لكي يقاتلوا ببسالة وصلابة، فضلاً عن ميزة الجغرافيا التي تمنحُها لهم أرضُهم، لكنَّ رأيَه راحَ هَبَاء، وحينما خرج جيشُ المسلمين أدركَ ابنُ سَلول أنَّ نظرتَه أكثرُ صواباً ممن خالفوه وأقنعوا النبيَّ فعادَ برجاله قائلاً لهم: ارجعوا أيُّها الناسُ، عصاني وأطاعَ الوِلْدَانَ، وما ندري علامَ نقتلُ أنفسَنا هاهُنا أيُّها الناسُ.

أُطلِقَ بعدَها عليه وصفُ المنافق، وهو إنما رجع خشيةَ الهزيمة التي كان يراها محققة لا محالة، ومعها كان سيخسر كلَّ شيء من زعامة ورجال، وإذا كان هذا حالُ ابن سلول الذي تراجعَ عن نفاقه في لحظة بعدها كانت ستقعُ مذبحةٌ برجاله، وما زلنا نصفُه حتى الآن بالنفاق، فبماذا سنصفُ من استمرَّ ببيع الوهم لجمهوره، وهو البعيدُ عن مصدر الخطر كلَّ البُعد يلقي بِعِظاته على المساكين لِيُلقوا بأنفسهم إلى التهلُكة.

إنَّ صناعةَ المثقفِ جاءت إثرَ تطور وسائل الإعلام العربية وتبنيها لإيديولوجيات رأس المال المؤسِّس لها، فصار كلُّ وجهٍ ثقافي يُطابقُ إيديولوجيةَ القناة يُستَدعى وتُجرى مقابلاتٌ معه ويُعطَى مساحةً ليروي أفكارَه ونظرتَه المُطابقَة لنظرة الإعلام المُستضيف، لكنَّ بعضَ هؤلاء قد خُدِعوا وكانوا يظنون أنهم يَستخدمون الإعلام ليوصلوا رسالتَهم دون أن يَعُوا أنَّ الإعلامَ هو من كان يستخدمهم، وإن ذكرنا سابقًا أنَّ المثقفَ لا ينبغي له في الهزَّات العنيفة والانهيارات الكبرى أن يستخدمَ عاطفتَه ويتنازلَ عن عقله وعن الوعي لأنه في تلك اللحظات عليه أن يكون المثقفَ الحقيقيَّ، لكنَّ أغلبَ المثقفين كانوا يخشَون خسارةً أو يطمعون بمغنَم، ويخافون مما سيأتي كمثقف السلطة، ويحقدون على ما مضى كمثقف المعارضة، لقد كانت العواطف غالبة، وكانت الرغبة الغريزية بالانتصار دافعًا دون إعمال العقل، هذا كان أحد الأسباب التي جعلت بعضَ المثقفين يدركون خطراً ما أو خطأ ما لكنهم كانوا يتجاهلونه في

سبيل الهدف الرئيس لهم وهو انتصار فريقهم، في حديث مع الإعلامية زينة اليازجي تقول (إحدى أيقونات الثورة السورية) فدوى سليمان - وهي ممثلة سورية- إنها كانت تعلم بوجود معاهد لتدريب نشطاء الثورة، وقالت: **تجاوزنا ظهورَ قناة شام، والتنسيقيات، ولجان التنسيق، وبيان الثورة الذين ظهروا جميعًا فجأة لأن هناك ما هو أهم وهو إسقاط النظام، فمرَّ كلُّ ذلك سريعًا علينا، وقد بدأتُ أفهمُ أنَّ هناك شيئًا مُنظمًا، وحتى أسماء الجُمع لم نكن نعلم مَن يُسمّيها، وكنا نحسُّ أن هناك شيئًا مخططًا من سوريين، لكن لا نعرف إن كان هناك ارتباط حقًا، لكن هذا التنظيم (تنظيم المظاهرات)، وكلمة (الله أكبر) التي انتشرت فجأة في سورية، بدأنا نتساءل: هناك شيء ما، وقلتُ أما آنَ للبشرية أن تكفَّ عن القتل، وأن تكفَّ عن الغزو المادي، وعن الدخول إلى العالم الافتراضي للشعوب الحية لتمحي ملفاتٍ وتضيف ملفاتٍ، وأننا محتلون، ونحن نتحرك تحت شيفرة معينة، وحين سألتَها المذيعةُ: ومع ذلك بقيتِ في الشارع؟ قالت: نعم، لأن لنا مطالبَ محقَّة**[30].

رغم كل ما شاهدَتْه فدوى من أمور مجهولة إلا أنها استمرت في الشارع لأن عاطفتَها قادتها لذلك، وإن ما قالتْه في لحظة صدقٍ ونَقْلٍ للحقيقة كما هي لم يقله أحدٌ من المثقفين الذين حجبوا عن الشعب

(30) المقابلة موجودة على اليوتيوب قناة زينة اليازجي، نُشِرتْ في 2/ 4/ 2012 برنامج الشارع العربي.

الحقيقةَ، ومن كان يقوم بتنظيم كل هذا؟ ومن هي الدول التي تريد محوَ ملفاتٍ وإضافة ملفاتٍ؟، إن سياسة تجهيل الشعب تعتمد على عدم قول الحقيقة، بل تعتمد على إخفائها، وتعتمد على إثارة مشاعر الجماهير لا إثارة عقولهم، لا يمكن لأي فرد يؤمن بِقِيَم القَرْن الواحد والعشرين أن يخلعَ عن فردٍ حقَّه في انتقاد السلطة وفي تغييرها إذا ما رأى فيها عيوبًا، لكن لا يمكن أن يتمَّ ذلك بتمويه الحقائق وإخفائها عن الشعب، قلنا سابقًا إذا أردت مخاصمةَ السلطة ينبغي أن تكون أكثر نُبلاً منها، وإلا فإن خصومتَك لا معنى لها أخلاقيًا.

إن المثقف المُصنَّع غيرُ مُصرَّحٍ له أن يتحدثَ بالحقائق هذا إنْ كان يعلمُ ما الحقيقة أصلاً، المثقف الذي صنَّعه الإعلامُ ينطلق في رؤيته من إحدى تلك المبادئ الآتية: إما أن يكون عاطفيًا ويبني مواقفَه من السلطة أو معارضتها على حبّ أو حقد، فخسارة عزيزٍ عليه قد تدفعُه للتطرف دون أن يعلمَ حقًا إنْ كان الخصمُ من قتله أو جاء قتلُه نتيجة أمرٍ لا يدَ للخصم فيه، لكنه يريد تصديقَ أنَّ الخصمَ مَن قتله، وإما أن يكون مرتزِقًا يبحث عن منفعته الخاصَّة ولا تعنيه قِيَمُ الحقِّ والعدالة، ولا تعنيه الأخلاقُ، ولا يمكن أن يثيرَه تجهيلُ الجمهور والتعمية على حقائقَ قد تضُر مصلحته، وإما أن يبني موقفَه على تحيُّز عاطفي ديني أو قَبَلي أو اجتماعي، فيبرر أيَّ سلوك يتخذه فريقُه، وينتقد أيَّ سلوك يتخذه خصمُه.

سابقـًا كان وجود هذا المثقف أشبهَ بالعَدَم؛ لأن الفكرة هي ما تجعله مثقفـًا، نضاله في سبيل الإنسانية وكان هناك شـحٌّ في وسائل المعلومات، وبالتالي كان عليك أن تكون قارئـًا نهمـًا، ومحللاً خبيراً، ومفكِّكـًا عقليـًا، وكاتبـًا جيداً ذا موهبة حقيقية لكي تُستقبَلَ في دار نَشْر أو صحيفة أو وسيلة إعلامية، أما الآن صار يكفي أن تجدَ مَن يصنعُك، صار يكفي أن تكون مُقرَّبـًا من أصحاب النفوذ أو من نادي المثقفين لتنفذَ إلى حقل الإعلام، وتكسبَ صفةَ المثقف، وهو ما سنعرضه في فصلٍ قادم.

الوهم يربح دائماً

أهم ما يقترفه المثقَّفُ بحق الإنسانية عامةً وشعبه خاصةً هو أن يتاجرَ بالوهم، فالجمهور الذي انقسمَ إلى جماهير لم يكن انقسامُه وتشظيه وليدَ الصُّدفة، إنما هو حدثٌ له أسبابُه الكثيرةُ وتداعياتُه التي نعيش نتائجها حتى الآن، وكان المثقفون سبباً مُهماً فيما جرى، فمثقفو الثورة منذ بداية الأحداث كانوا يردِّدون الكلامَ الذي يرغب الجمهورُ في سماعه؛ وهو أنهم خلفَ الشعب وخلف مطالبه، وأنَّ ميزةَ الحراك الجماهيري أنه بلا قائد، غير واعين لحقيقة عدم إمكانية ضبط هذا الشعب في الشارع، أو أنهم واعون لهذه الحقيقة، إنما كانوا يبحثون عن مصالحهم الآنيّة أو المستقبلية، فصار المثقفُ يتملَّقُ الشعبَ بدلاً من مواجهة جنونه تحت تأثير الخشية منه والخشية على صورته التي سعى جاهداً لتلميعها بفضل مداهنة الشعب والسير وفق ما يشاء، مُتخلياً عن وعيه وحسّه النقدي، ومُتخلياً عن العقل لمصلحة الرغبة والمنفعة لغايات كثيرة كالحقد على السلطة، أو الرغبة في تصدُّر المشهد الثوري، وكسب امتيازات منفعية، أو ربما لقيام البعض بالتمويل (عن سوء نية أو طيب نية) من جهات أجنبية ادَّعت تبنيَ قضيته، وأرادت محوَ ملفات وإضافة ملفات، كما ذكرنا سابقاً على لسان الممثلة فدوى سليمان، فكان الوعي الشعبي المنفلتُ من كل حسٍّ نقدي يطغى على المثقفين الذين فقدوا دورَهم التنويريَّ

عمْـداً، واسـتبدلوه بـدورِ التـابع والمحـرّض للجمهـور ظالمـاً كـان أو مظلومـاً، غير عابئين بموتـه أو مـوت الآخـرين، وبمـا قـد يلقـاه جـرَّاء هـذا التحريض الغرائزي، إن التـاريخَ يثبـتُ لنـا أنَّ الجمهـورَ المنفِلـتَ مـن كـلِّ ضابطٍ هو جمهورٌ تقودُه الغريزةُ فيرتكب الكثيرَ من الجرائم باسم القضـية التي يدعو إليها، ألـم يقـترفِ الثوارُ الفرنسيون الكثيرَ مـن الجـرائم باسـم ثورتهم، ألم يشهدْ عهدُ الإرهاب الفرنسي جرائمـاً باسم الثـورة والحريـة؟ ألم يقترفِ الكثيرُ من اللبنانيين الجـرائمَ باسـم الـوطن؟ وعبْـر التـاريخ ألـم يرتكبِ المسلمون والمسيحيون الكثيرَ من الجرائم والحروب باسـم الله؟ كم من الجـرائم ارتُكبَـتْ وتُرتكَـبُ باسـم المفـاهيم النبيلـة كـالله، الـوطن، الحرية، الشرف، الثورة؟

تمثّـل العلاقـةُ بـين المثقـف الحقيقـي والمجتمـع العلاقـةَ بـين العقـل والرغبة في الإنسان، فبالرغبة وحدَها يغدو الإنسانُ مُجرمـاً يتبع غريزته في المأكل والجنس والمُلكيَّة والسيطرة، ويصبح عبداً لرغباته غيرَ قادر علـى التحرّر من قيودها؛ لأن لا شيء يحدّها غير القوة، قوتـه وقـوة الغيـر الـذي يواجهه (قانون الغاب)، ولذا فالمثقف الحقيقـي هـو عقـل مجتمعـه الـذي عليه واجبُ إنقاذه من الانفعالات وضبطها وتوجيهها لا واجب تحـريض هذه الانفعالات وتركها تستعر لأنها إذا ما استعرت لا شيء سيوقفها غيـر قـوة الخصـم الـذي تواجهـه، وفي هـذا تكـون التهلكـة إذا تُركـت الأمـورُ يحدّدها عنصرُ القوة.

إن المثقف الذي اشتغل بالسياسة من باب ثقافته ومن ترويج الآلة الثقافية له (الإعلام) أصبح بوقًا وفق المعنى العامي للكلمة يبيع الوهم بانتصار هذا الشعب ويُشيد بالإنجازات والبطولات التي يقوم بها الشعب ويتماهى مع الأخطاء ليجد التبريراتِ الملائمةَ لها، ويقوم بدوره التحريضي وهو على ضفة العالَم الآمنة، وقد تساوى مثقفو الثورة ومثقفو السلطة بهذا الدور التبريري والتحريضي لانفعالات جمهورهم، غيرَ عابئين بقِيَم الحق والعدل، غيرَ مكترثين بالحقيقة التي قام الفريقان بتمويهها، وانتقل المثقفُ ليغدوَ سياسيًا يستخدم الشعبَ وسيلةً لغاياته، فمَن مِن مثقفي السُّلطة لم يوهم جمهورَه بأن النصرَ قابَ قوسين أو أدنى، من منهم اعترفَ بوجود أزمة حقيقية بين الشعب نفسه وبين السلطة ومعارضيها، ومَن مِن مثقفي المعارضة لم يوهم الجمهورَ بأن دولَ العالَم قاطبةً ستتدخلُ لإزاحة هذه السُّلطة وأنها قابَ قوسين أو أدنى من الرحيل.

إن بيعَ الوهم في الهزات العنيفة وفي حركات التاريخ الكبيرة يؤدي لتدمير البلاد بأيدي أصحابها، كم مِن الأوهام ينبغي أن نُحصيَ للتأكيد على فكرتنا، بيع الوهم بطلب التدخل الدولي في حل الأزمة فتدخلت دولُ العالَم لمصلحتها، لكن لم تتدخل لأجل الحرية بل لتحطيم البلاد، بيع الوهم بأن لا مفرَّ من السلاح في مواجهة السلطة فتسلحَ الشعبُ، بيع الوهم بأن الفصائلَ المُسلحة إنما وجدت لحماية أهلها فتعدَّت حدودَ الحماية، بيع الوهم بأن أسماءَ الفصائل إسلاميةٌ لأن الدولَ الإسلاميةَ

تدعمُها، بيع الوهم بتحرير الأراضي وهذا كارثة الكوارث، إذ لم نجد مثقفاً واحداً يعيش في تلك الأراضي التي ما زال وهو المقيم في أراضٍ قصيَّة عنها يقول عنها مُحرَّرة، تلك المناطق التي حُرِّرت من استبداد سياسي كما تراه نُخَبُ الثورة فوقعت باستبدادٍ أشدّ وطأة وهو استبداد سياسي واجتماعي جعل المجتمع في تلك المناطق على شكلٍ واحد فلا يمكن أن ترى فتاة تتبوأ وظيفة مهمة أو ترتدي الزيَّ الذي يحلو لها، ولا يمكن أن ترى رجلاً يمارس حياتَه إلا ضمن قالب الجماعة المسلحة هناك، أيٌّ من نُخَبِ الثورة التي ترتدي بناتُهم ما يحلو لهنَّ، ويشربون الخمورَ في بلاد اللجوء الغربي يمكنهم أن يفعلوا ذلك في (المناطق المحرَّرة)؟، تحطيم العقل كان سمة المثقفين الحاضرة، والانخراط في مشاعر الجماهير وتوجهاتهم العقائدية وبيعهم الوهمَ كان سوقَ تجارتهم الرابحة، إنها أشدُّ أنواع التجارة ربحاً لأن الغريزة تقودها لا العقل.

إنَّ المثقفين وإن كانوا ينضوون تحت لواء فئة اجتماعية هي النخبة إلا أنهم لا يشكّلون فريقاً واحداً وذلك لأن للمثقفين أشكالًا عديدة، فيشكّل بعضُهم فيما بينهم (مافيا) خاصَّة بهم، ويكوّنون إطاراً جامعاً لهم ضد الغير، وتكون فكرتُهم ضدَّ أفكار الآخر المختلِف ولو كان من مجتمع النخبة، فإذا ما انتقدتَ واحداً منهم أو فكرة قالها أو سلوكاً اتخذه حاربَكَ الآخرون علناً، ولأنهم يجمعون خلف شاشات حواسيبهم وهواتفهم مُريدين كُثُرًا سيبدو الآخَر هو الخاسر في هذه المعركة، ترى مجموعَ

الشعراء والكُتَّاب يمثّلون فريقـًا واحدًا، والممثلين يمثلون فريقـًا آخرَ، والرسَّامين والصحافيين وأصحابَ دور النَشْر كذلك، وقد ترى مجموعة تضمُّ كلَّ ما سبق من مهن، إنَّ (شللية) المثقفين حاجز يحدُّ العقلَ من المراجعة القويمة للأفكار، فباجتماعهم يؤكدون قوة فكرتهم وحقيقتها وأن لها أنصارًا كُثرًا لا يقيمون وزنـًا للآخر المختلِف، للآخر الذي لم ينضوِ تحت (مافيا) تساعده وتدعمه ويدعمها فتراه وحيداً منبوذاً من مجتمع النخبة، هذه (المافيا) تسوِّق لنفسها، ويساعد بعضُها بعضًا، وتحارب غيرَها، فأن تنشرَ كتابًا لدى دار نَشْر لا يحتاج الأمرُ لقَبول وموافقة دار النشر إلا توصية من زميلك في ذات (المافيا)، وحضور ندوة ثقافية لا يتطلب إلا أن تكون عضواً في (المافيا)، وحين تولَدُ صحيفةٌ جديدةٌ ستُدعى للكتابة فيها أو الرسم أو العمل الصحفي إذا كُنت في المجموعة، وستُهمَل إذا كُنت خارجها مهما امتلكت من مؤهلات، وهذه (المافيا) مما يُعزز الأوهام ويُسوِّقها ويُروّج لها.

إن (مافيا المثقفين) تُبنى على معايير أساسية لا يمكن الدخول لناديها دونها من مثل المواقف السياسية (موقفك من السلطة والثورة مثلاً)، المواقف الاجتماعية (موقفك من قضايا النِسْوية مثلاً أو المثلية)، المواقف الاقتصادية (موقفك من النظام الرأسمالي والنظام الاشتراكي مثلاً)، المواقف من أنظمة العالَم (موقفك من أمريكا والغرب عمومـًا، موقفك من إيران أو روسيا)، معرفة النُخب الأخرى (بأن يكون لك علاقة

في وسط نخبوي معين حكومي أو غير حكومي فيحتاجك الآخر بقدر حاجتك لمعارفه أيضاً).

هذه مؤهلات دخول (مافيا المثقفين) التي إن لم تمتلكها فلن تكون عضواً معهم، وقد تكون مكان الخصم لهم لمحاربتك على أي أفكار تقولها لا تعجبهم، أو قد لا تعنيهم لكن رفضها يزيد في تأييد جمهورهم لهم فيسارعون لمهاجمتك وإقصائك تحت وطأة غريزة الجمهور ومشاعره، وسأذكر هنا مثالاً سورياً وآخر فرنسياً عن عملية إقصاء من هو خارج (مافيا المثقفين) وقذْفِه بالخيانة؛ ففي المثال السوري يقول هيثم منَّاع المعارض السوري في مقال له يتحدَّث فيه عن رفض العسكرة والدعوة لحلٍّ سياسي مبني على التفاوض: «**انفجرت حنجرتنا وجفَّت أقلامنا ونحن نقول «إذا استقبلتم ألفًا من الشيشان فسيأتيكم ألفان من لبنان، التطبيع مع فكرة المقاتل الأجنبي والتدخّل الخارجي والعنف في أي لبوس كان ستدمّر البلاد والعباد»، كان ردُّ السُفهاء والعملاء: «منّاع وجماعته يريدون بقاء الأسد في السلطة»**[31].

هذه عقلية الإقصاء التي لا تدع مجالاً للعقل بل للغرائز لم تنته وما تزال مستمرة في أوساط المثقفين عامةً والعاملين بالشأن العام، عقلية تقوم على الشتم والسبّ والإقصاء ومحاولة تشويه الآخر حين لا يكون في

(31) موقع karkadan.net مقال بعنوان اللجنة الدستورية والفريق الأممي إلى أين؟، الدكتور هيثم مناع، تاريخ 10/ 9/ 2020.

ذات المنصة أو (المافيا)، فلأن السيّد منّاع رفضَ العسكرة جاءه ردُّ المعارضين بأنه عميل للسلطة ويريد بقاءها، وحالياً نجد على منصّات التواصل الاجتماعي الإقصاء ومحاولات التشويه على أشدّها، إذ ترى كلَّ مجموعة مثقفين يتساندون ويؤيّدون بعضَهم في أيّ قضية قد تُطرح، وقد تراهم يوزّعون شهادات الرضا يميناً وشمالاً، والمشكلة لا تبدو في هؤلاء المثقفين إنما في حصنهم الثقافي وهو جمهورهم، هذا الجمهور الذي يتلقّف ما يقوله نجومُهم ليغدو حقيقة مطلقة دون إعمال العقل، وبالتالي فقد فشلنا فشلاً ذريعاً في إنتاج وعي الإنسان، وفشلاً في إيجاد انتماء حقيقي لقضية الإنسان وللحقيقة التي فقدناها، يقول الدكتور نضال صالح وهو رئيس اتحاد الكتاب العرب في محاضرة ألقاها بعنوان الثقافة والمثقّف والحرب على سورية إن **في سورية ما يتجاوز 462 مركزاً ثقافياً وربما ما من قرية صغيرة إلا فيها مكتبة متنقلة أو وحدة مكتبية** لكن ورغم ذلك فإن ما يفسّر ضحالة الوعي ما يقوله الدكتور نضال تالياً من أنَّ **ثمَّة فرقًا بين الفعل الوظيفي والفعل الثقافي فالفعل الوظيفي يعني الالتزام بتنفيذ خطّة، لكن الفعل الثقافي يعني أن يكون هناك مشروع للبناء وليس تنفيذ خطة**[32]. وهذا ما جعل الوهمَ ينتصر على الوعي، وجعل لرموز الإنترنت قدرةَ التأثير على الناس الذين يتبعونهم دون أي تفكير بسيط بالحقيقة وما هي وأين هي، تكمن صناعة الأوهام بنبذ كلّ ما هو خارج

(32) http://tishreen.news.sy/?p=28085

عن تجمّع المثقفين، ولو كان حقاً أو فيه نسبة من الصواب، ولو كان صادراً عن شخصيةٍ عامةٍ أيضاً، وتجد بعض أعضاء نادي المثقفين لا يناقشون فكرة أحدهم، بل يمارسون السخرية عليها باعتبارهم أكبر من أن يُناقشوا أحداً؛ لأن الأنا لديهم قد تضخَّمت لدرجة أنهم ليسوا مضطرين لإهدار وقتهم للرد على فكرةٍ مُخالفة، فلديهم الوسط الثقافي الذي يدعمهم، والجمهور الذي لا يُتابع الآخَرَ فيما قاله ولا يبحث في الواقعة، فهم حُرَّاس الحقيقة المُطْلَقة، وكل ما يُمكن أن يُزعزع بنيانها مرفوض بشكل كامل، وكل ما يُمكن أن يعززها تُفتَح له الذراعان مستخدمين بذلك جماهيرهم في التحريض على الآخَرِ المُختلف وإقصائه بتهم صارت مُعدَّةً سَلفاً، تلك التُّهم التي تُسعد الجمهورَ فلا يُكلِّف نفسَه عناءَ البحث عن الحقيقة، بل يسعى لدعم مُثقفه عاطفياً دون التأكّد مما يقوله، ويحدث كثيراً أن ترى صديقاً داعماً لشخصية مشهورة تُهاجم مقالاً لشخص آخر فتسأله ما هو جوهر الواقعة فيجيبك بالنفي وعدم الاطلاع، لكنه -مع ذلك- يُساند مثقَّفَه دون وعي لمجرد أن شخصاً نخبوياً قال شيئاً ما فأتباعه سيؤيدون قولَه ويُقصى القولُ المخالِف، إن ضحالة الوعي هذه لا يمكن لآلاف المراكز الثقافية أن تمحوها، بل بناء العقل وطريقة التفكير والوعي بطريقة الاختلاف هي ما يمكن أن تبدّدَها. وأما المثال الفرنسي عن مافيا المثقفين والإقصاء فيورده باسكال بونيفاس في كتابه (المثقفون المزيفون) عن إقصاء برنار هنري ليفي وهو الفيلسوف

الفرنسي المشهور لكل من لا يكون في فريقه فيقول بونيفاس: **تكلمت سيلين بوانيك الكاتبة في الصفحات الثقافية لمجلة Elle بالسوء عن كتابه كوميديا، في يوم النشر نفسه دخل المسؤول عن صفحات الكتب في المجلة إلى مكتب سيرج رافي مدير النشر وقال له بضيق: يطالبوننا بطرد سيلين، كان ذلك بطلب من زوجة جان لوك صاحب المجلة**[33]، وجان لوك هذا هو صديق برنار هنري ليفي.

هذه الشللية هي إحدى سلبيات وسائل التواصل الاجتماعي، إذ بدخولك نادي النخبة تحظى بدعم على وسائل التواصل الاجتماعي، ويزداد مُريدوك، الأمر الذي يمنحك القوة في مواجهة من لا يتفق معك في موضوع ما، فتأييد الكثيرِ لموضوعٍ تطرحه كعضو في نادي النخبة لم يعد يؤخذ على أنه قد يكون خطأ، بل صار يؤخذ كحقيقة تدعمها باقي (المافيا)، وصار الحديث -وإن كان مَحْضَ تُرَّهَاتٍ- يؤخذ على محمَل الحقيقة، ترى الكثير من الكُتَّاب الذين أمضَوا عُمراً في الكتابة قد لا يحظون بربع ما يحظى به عضو نادي النخبة من متابعين، وهذا ما يجعل هذا العضو يظن في نفسه الحقيقة المطلقة، وأنه أهمُّ من ذاك الكاتب الذي صرف جُلَّ حياته في الكتابة والقراءة، إن وسائل التواصل الاجتماعي ساوت بين المثقف الحقيقي والمثقف المُزيَّف، بل وجعلت المُزيَّف

(33) المثقفون المزيفون، باسكال بونيفاس، ترجمة روز مخلوف، دار ورد للطباعة، الطبعة الأولى، 2013، صفحة 149.

يتجاوز الحقيقي في بثِّ أفكاره بسبب جمهورٍ يرغب بقراءة ما يريد لا بقراءة الحقيقة، يتشبث بمَن يعطيه الوهمَ الذي يُريحه ويجعله يظن أن تفكيرَه صائبٌ، ويرمي من يُعطيه حقيقة مرفوضة سلفًا، فمَن يُقدِّمُ وهمًا يُريح أفضلُ ألفَ مرة ممن يُقدِّم حقيقةً مُزعجةً.

في رواية (آلموت) لفلاديمير بارتول يروي أنه بعد سعي الحسن الصباح ليتعلَّم الدينَ الحقَّ يتصادف أن يلتقي بأحد أهمِّ الدُّعاة الإسماعيليين الذي يجد في الحسن الصباح من النباهة والذكاء واتّقاد العقل ما لا يقبل ما يقبله العامة من مُسلَّمات فيقرر إطلاعَه على السرِّ بقوله: لا شيء حقيقي، وكل شيء مباح، وأنَ كلَّ ما يُلَّقِنونه للعامّة من أحاديث عن محمد وعلي وفاطمة وغيرهم إنما هو لضبطهم فقط لا لتقديم الحقيقة إليهم، ويبني الحسن الصباح فيما بعد ذلك دولتَه في آلموت عن طريق إيهام جمهوره بنعيم الآخِرة وتلاعبه بعقولهم، إن في هذا الفصل من الرواية درسًا من دروس تزييف الوعي للجمهور لضبطهم وتسييرهم وفقَ ما أُعِدّوا له، لا وفق ما تقتضيه مصالحُهم، هذا الذي جاء في الرواية هو الحاصل تمامًا، وهو ما يمارسه الساسة والنخب المجتمعية وفق مصالحهم وأهوائهم دون اعتبار لما قد ينتج عن ذلك بالنسبة للشعب، ولا مندوحة عن التذكير بأن مجتمعاتنا متشظية تتقاسمها الهويات الطائفية والنزعات التاريخية التي ترى نهضتها في العودة للماضي وترى في نفسها الحقيقة المطلقة التي يمتنع التشكيك بها، هي مشكلات

مُركَّبة تحتاج لإعادة إنتاج مفاهيم جديدة ولتقييم الذات المجتمعية ليس لمواكبة الحضارة، بل قبل ذلك لمواكبة شُرعة حقوق الإنسان وحماية الإنسان في مجتمعاتنا من النكوص إلى مراحل قَبَلية من أهم سماتها نَبْذُ الرافض لعادات القبيلة وتقاليدها، والنزوع للسير حتى الهاوية وفق ما يراه شيخ العشيرة، وتغليب الرغبات على العقل، وإذا كان الساسة يمارسون هذا الوهم لضبط الجمهور واقتياده إلى حيث يشاؤون فلماذا يمارسه المثقفون أيضاً؟، لا جواب مقنع غير أنهم يخشون الجمهورَ، ويفضّلون تغييبَ العقل ودعمَ الحالة القبلية على الخروج عليها ونبذهم، وهُم بذلك يتخلَّون عن رسالتهم ووظيفتهم بملء إرادتهم خشيةَ جمهورهم، أو طمعاً بمكتسبات يطمحون إليها، أو أنَّ الوعيَ لديهم قد انساق لوعي الكثرة بعامل التحريض والعاطفة، كما يحلل هذه الظاهرة غوستاف لوبون ففقدوا كلَّ حسٍّ نقدي، إنَّ تطرفَ المثقفين وانزياحهم عن دورهم بالتماهي مع الجمهور لتوعيته يتم حينما يروّجون لأفكارٍ لا يؤمنون بها أو لا يمارسونها، بل يمارسون عكسَها حقيقة لا غاية لهم إلا البقاء في القمة حيث الناس تراهم نجوماً فيخافون على مكانهم بالقمة أكثر من خوفهم على الناس الذين يرونهم هناك.

في حزيران من العام 2019 قُتِلَ شابٌّ يُسمَّى عبد الباسط الساروت، وهو الذي أُطلِقَ عليه حارس الثورة، شابٌّ كان في التاسعة عشر عند بداية الحرب قاتَلَ السُّلطةَ وآمَنَ بقتالها وماتَ لأجل ذلك (هو صاحب قضية

مات لأجلها بغض النَّظر أنتفقُ أم نختلف مع قضيته)، لكنه عندما ابتدأت المظاهراتُ كان من أوائل الداعين للتسليح، ومن أوائل مَن لهم كتائب مسلَّحة، وقد بايعَ تنظيمَ (داعش) الإرهابي، ثم قيلَ إن ما فعلَه هو انفعالٌ ولم يفعله عن قناعة، من حقِّ أيّ كان أن يتعاطفَ معه، ومن حقِّ أيٍّ كان أن يُبديَ انتقاداتٍ لأسطرته دون أن يُقذِفَ بآلاف التُّهم غير الحقيقية، لن أُنكرَ على جمهوره الذين يتماهون معه في التفكير والمنهج اعتبارَه بطلاً شعبيًا لأنه يُمثّلهم فكريًا وعقائديًا، لكن أن يقوم بتمجيده مثقفون يختلف منهجُ تفكيرهم تمامًا مع منهج تفكير الساروت، ولا يجمعهم به غيرُ رفض السُلطة، فهؤلاء إمّا يُمارسون الخِداعَ لتعميم تجربة الساروت على البُسطاء لزجِّهم في نيران الحريق وجعله آية لهم ومُلهِمًا ليسيروا على دربه، في حين هم بعيدون آمنون، وإما أنّ وعيهم قد أصابه العَطَبُ، وتخلَّوا عن كل مبادئهم في الحياة في سبيل هزيمة السلطة، هؤلاء المثقفون العلمانيون تحديداً الذين أبدَوا حزنَهم على رحيله هل بإمكانهم أن يعيشوا الحياةَ ذاتَها التي يعيشونها في منافيهم الأوربية حيث كان يُقيم هذا الشاب، ويُمارسون مع عائلاتهم طقوسَهم في الملبس والحرية فقط، إذا كانوا يرون أن السلطة مستبدة سياسيًا فإن المشروع الذي تحمله داعش والنصرة والكتائب الإسلامية هو مشروع استبداد ثقافي اجتماعي سياسي، مشروع ذو بنية تاريخية تراثية، مشروع نكوص للماضي والعيش في أوهامه.

رغم ما قامت به الثورة الفرنسية من فظائع في ما يُسمَّى بعهد الإرهاب، إلا أن فرنسا كان لديها أفكار فولتير وروسّو، وكانت تؤمن بمبادئهم في حرية الفرد، وهو الأمرُ الذي حرَّرَ فرنسا فيما بعد ونقلَها من المَلكية إلى الإمبراطورية إلى الجمهورية القائمة على حرية الفرد والمساواة والمواطنة، كل ذلك إثْرَ إعلان حقوق الإنسان والمواطن عام 1789م والذي ضُمِّنَ فيما بعد بعديد من الدساتير الفرنسية كدستور 1958 الذي أعطى هذا الإعلانَ قيمةً دستورية بالإشارة إليه في ديباجته، أما (الثورة) هنا فرغم ما جرى من عهد الإرهاب أيضًا في المناطق التي تسيطر عليها إلا أنها لم تخلق بُنى شعبية تُفصح عن أفكار ما تنشده من حرية، والحرية مفهوم أضحى فضفاضًا، ولم نجد من أفكارها سوى الشريعة أمامنا، هذه الشريعة التي تقف عائقًا أمام المساواة وتخلق حالةَ خوفٍ ممن لا يؤمن بها، خاصَّة أن لها تاريخًا في اغتيال الآخَر المختلِف، هذا الجمهور الذي يقوم على الوهم لم يجد مثقفًا علمانيًا واحداً معارضًا لم يداهنه ويتملَّق له ويزيد في إيهامه ذلك لتبقى صورتُه أمام هذا الجمهور صورةَ المثقف الحقيقي، ويبقى هذا الجمهورُ سببًا من أسباب تحصيل المثقف للمكاسب سواء في حضوره في المحافل العالمية أم في مزايا مادية أخرى تلحق به، هؤلاء من قال عنهم محمود درويش في قصيدته (أنتَ منذُ الآنَ غيرُك): **لا يغيظني الأصوليون فهُم مؤمنون على طريقتهم الخاصة، ولكن**

يغيظني أنصارهم العلمانيون وأنصارهم الملحدون الذين لا يؤمنون إلا بدِين وحيد: صورهم في التلفزيون.

فيما يُعرف بقضية جان كالاس في عام 1762 والتي شهِدَ مُحاكمةً ظالمةً أفضت لإعدامه بتهمة قتل ابنه الذي ارتد عن البروتستانتية، كان فولتير من المعارضين لذلك علانية، وألَّفَ كتابًا من رَحِم قضية كالاس أسماه (رسالة في التسامح)، لم يُداهن الكاثوليك الذين دعموا حكمَ الإعدام، ولم يتملَّق لإرضاء غير ضميره الإنساني، فهو كان يعلم أنه في حالات الانفعال والثورات يغيب العقل فيقول: **عندما تنفعل العقولُ تجمحُ وتجنحُ**[34]، لذلك -ولأنَّ واجبَ المثقَّف تنويريٌّ بالدرجة الأولى وليس تحريضيًا- أخذَ موقفًا صريحًا واضحًا من الجريمة القانونية التي ارتُكبَتْ بحق عائلة كالاس، هذا الموقف المعلَنُ الذي يُرضي الضميرَ الإنساني لم نجده عندَ مثقفينا، مَن مِن المثقفين الثوريين العلمانيين الذين يفاخرون بالمناطق المحرَّرة مستعدٌ أن يعيشَ فيها مع عائلته ويمارسَ طقوسَه وحريتَه الاجتماعية؟ مَن منهم رفضَ جرائمَ ارتُكبَت بحق مدنيين باسم الثورة وطالَبَ بمحاكمات عادلة؟، ومَن مِن مثقفي السُّلطة نادى بمحاكمات عادلة لكل معتَقَل والكشف عن مصير المغيَّبين؟، إنَّ الحقوقَ والحريَّاتِ هي غايةٌ أي حركة تاريخية اجتماعية تقوم، والحماية القانونية

(34) فولتير، **رسالة في التسامح**، ترجمة هنرييت عبودي، دار بترا للنشر والتوزيع، طبعة أولى، 2009، صفحة 12.

لتلك الحقوق والحريات هي ما تمنح الحركات قوَّتَها الدافعةَ بفعل عوامل ذاتية هي رغبة المجتمع بالحصول على تلك الحماية التي ينبغي أن تكون فوق السُّلطة وفوق الثورة، وإذا ما شعَرَ المجتمعُ أن السُّلطةَ توفِّرُ هذه الحماية تبعَها، وإذا ما شَعَرَ أن الثورةَ تحققها تبعَها، لأنها حقٌّ طبيعيٌّ يصعُب على الفرد التخلي عنه أو الإحساس بخسارته، وكما يقول دكتور القانون الجنائي والفقيه القانوني أحمد فتحي سرور: **إن القانونَ ليس مجردَ أداة لعمل الدولة، ولكنه أيضًا الضمان الذي يكفل حقوقَ الأفراد في مواجهة الدولة**[35]. أي أن القانون عليه أن يكفل الحقوق والحريات، والتي هي مضمون مبدأ سيادة القانون، ولا أعلم بأن مثقفًا من مثقفي أطراف الحرب قد طلب القانون إلا في مواجهة خصمه الآخر، والطريف أن الفريقين قد افترقا بكل شيء وتحاربا بكل شيء، لكن وحدتهما شعاراتُ الحرية والسيادة ودولة القانون المُدَّعاة.

إن ممَّا يثيرُ الحنقَ والغضبَ فعلاً أن تُطلَقَ صِفةُ المثقَّفِ على حملة الشهادات الجامعية والمدرسين الجامعيين وأصحاب المهن الفكرية الذين في أول اختبار حقيقي لهم تراهم تخلَّوا عن قيمة الإنسان الآخر الخصم، وتخلَّوا عن وعيهم وحسِّهم النقدي، واتّبعوا الجموع التي تجنح وتجمح للعنف والإقصاء حينما تستشعر القوة في نفسها فلا رادَّ لإرادتها

(35) د. أحمد فتحي سرور، **الحماية الدستورية للحقوق والحريات**، دار الشروق، طبعة ثانية، 2000، صفحة 22.

سوى القوة المضادة، وكذلك مما يثير الحنق أن يقوم هؤلاء باتِّباع الوهم والانقياد خلف منظومة فكرية بائدة فقط للاقتصاص من الآخر الخصم، لقد مزقت أوروبا الحروبُ الطائفيةُ وسيطرةُ الكنيسة وتلك التابوهات التي بدأت بالتحطّم مع عصر التنوير بإعمال العقل، ولم نجد في بلداننا ما ندعوه بأركولوجي الفِكْر الذي يحفر في الواقعة كثيراً ليجد الحقيقة ويخبرها للمجتمع بضمير يقظ وشجاعة لا تذبُل باستثناءات قليلة هُزِمت أو أُقصيت أو هُمِّشَت عمْداً، ولم ينتبه مثقفونا أو انتبهوا لكنهم غضُّوا الطَّرْفَ عن فكرة أن الحرية في مكان ما تعني غيرَ ما تعنيه في مكان آخر ضمن هذه الدولة الصغيرة المدعوة سورية، وإذا كانت المُسلَّمات والفرضيات والأفكار التي تتحكم بأساليب التفكير وممارسته في العصور القديمة ليست هي نفسها التي تتحكم بالعصور الحديثة، وبالتالي فلا داعي لإسقاط المفاهيم الحديثة على العصور السابقة؛ لأن ذلك يشكِّل ما يُدعى في عِلم التاريخ بالمغالطة التاريخية، فلذلك هل انتبه مثقفونا إلى أن البعضَ ما زال يعيش بمنظومة العصور القديمة بمُسلَّماتها وفرضياتها ويريدُ إعادتَها أي يريدُ إسقاطَ الماضي على الحاضر، وأنهم بتأييدهم ومداهنتهم طلباً للحرية أو ثأراً من السُّلطة لا يرتكبون مغالطة تاريخية فحسب، بل يرتكبون جريمة بحق الإنسانية.

إما أنهم لم ينتبهوا، أو أنَّ الوهمَ قد انتصر.

مَن الذي يحكم على أفكار المثقف؟ ومَن يحاكمه؟

إنَّ الفكرَ الإنسانيَّ هو تاريخٌ مليءٌ بالجدل والنقاش والبحث والنقد، وأحياناً بالدماء، ولم يصل إلى ما هو عليه اليوم إلا عبر تلك التراكمات الفكرية، إن فكرة ما يلِدُها المفكِّرُ لن تخلوَ مِن التحيُّز إليها ومن محاولات نقدها أو هدمها، وهذا ما يجعلها تنمو وتتطور وتُشكِّل درجةً في سُلَّم الفكر الإنساني الذي لا يشترط نجاحَها فقد تحتاج عشرات السنين لتسيطر، أو قد تندثر بعد وقت قصير لكنها تترك أثرًا وتبقى حجراً يُحرِّك المياه الراكدة في أي مجتمع، ومحوراً للتفكير وتبادل الآراء، ربما يقف المجتمع ضدَّها وتظلُّ منفية إلى أن تتغيرَ طريقةُ تفكير المجتمع فيتلقفها ليؤسسَ عليها ويتبناها، وربما يتبناها المجتمعُ لكنها مع الوقت ومع تغيير تفكيره ينفيها بنفسه إذا شعَرَ بانعدام حاجته إليها، أو أنها لم تعد تُلائم عصره، فما هو المقياس الذي يحكم على الأفكار؟

يرتبط هذا المقياس بأمرين هما المجتمع والزمن، فالمجتمع هو من يحكم على الأفكار تبعاً لوعيه، والزمن يُمارس فعلَه أيضاً فما يراه المجتمع فضيلة قد يتحول لرذيلة بفعل الزمن الذي يُسهم بتغيير الوعي الجمعي وبتفكير المجتمع عبر أجيال قد لا تسير على خطى السَّلَف وتُبدع نمطَ تفكير مُختلِف، فما كان يراه الرجلُ رذيلة قد يراه الحفيدُ

فضيلة بسبب تغيُّر الزمن وأدوات إنتاج المعرفة والتطور الذي يُصيب مجالات الحياة بشكل عام، لكن يكمن المُصاب حين يتراجع وعي المجتمع ولا يُصيب أفرادَه نصيبٌ من تطوّر الحياة، فتراه ينكمش على نفسه ويرذل كل الأفكار التي تسهم بتغييره، وهذا الأمر الذي قد يتشكَّل بفعل مثقفي الخراب الذين قد يقذفون أوهامَهم كأفكار.

للكلمات نفوذٌ -يقول باولو كويلو- وإن نفوذَ الكلمات لا حدَّ له، وحينما يستخدمها المثقف لتهلكة (الآخر) الذي يؤمن بقوله ويُصدِّق خرافاته أو أوهامه فيموت بسببها هنا تغدو المحاكمة ضرورة تاريخية لا مناصَ منها، خاصة إذا كانت تلك الكلمات مبعثها الدجل، فعلى رأي فولتير **أثمة دجل أعظم من الاستعاضة بالكلمات عن الأشياء، ومن الرغبة في جعل الآخرين يؤمنون بما لا تؤمن به أنت نفسك؟**[36]، فكم من الدجل قد زُجَّ به في التاريخ سواء بإدهاش القارئ، أم بدغدغة الخُبث البشري، أم بتملُّق الطغاة بالمديح الشائن.

إن التاريخ هو من يُحاكم المثقفَ الذي ينبغي أن يتحمَّل مسؤوليته تجاه شعبه وتجاه الإنسانية وتجاه الضمير الأخلاقي الإنساني، فلا يُقدِّم حيلَه أو كذبَه نُصرةً لما يراه قضية، ولا يُقدِّم أوهامَه على أنها الحقيقة، ولا يُبرِّر الخطأ تحت اسم الضرورة أو يقوم بتجميله، ولا يُفاخر بأصحاب

(36) فولتير، **القاموس الفلسفي**، ترجمة يوسف نبيل، مؤسسة هنداوي سي أي سي للنشر، صفحة 73.

قضيته فهذا ليس من مسؤولياته، بل مسؤوليته الأولى والأخيرة هي الخير العام للناس ولمجتمعه دون التسبُّب بآلامهم.

فكل مثقف يفعل فعلاً لا يُطابق ما يقوله للناس على المجتمع التنبه منه والتنبيه عليه، فالذي يُحرِّض جمهورَه لقتال السُّلطة لتنتصرَ ثورتُه إنما يقوم بفعل القتل بحقهم إذا كان يجلس وعائلته في الملاذات الآمنة لا يحيا حياتَهم ولا يشعر بمآسيهم وهواجسهم، وعلى الضفة الأخرى كذلك الأمر فمن يدفع بالناس البسطاء لحَمْلِ السلاح بحجة الدفاع عن الوطن ليتملقَ السُّلطة عليه أن يكون أولَ الحاملين للسلاح، وأبناؤه كذلك، لا أن يُرسلَهم للدول الآمنة ثم يمارس نفاقَه طمعاً بمغنم وتزلُّفٍ لسُلطة.

مثقفو الخراب من كل طرف يطالبون بمحاكمة كل قَتَلَةِ الطرف الآخر وكلِّ من ارتكبَ الجرائمَ والفظائعَ، وهذا مطلبٌ مُحقٌّ، لكن مَن حَمَلَ البندقيةَ – ليدافعَ عن قضية يظنُّها حقًا لإيهامه بها أو لتأييد اعتقاده ووجود من يبرّر له إذا ما ارتكبَ خطأً أو جريمة – ليس بذلك السُّوء الذي يملكه المثقفُ الكاذبُ الذي دفعَه وكُثُرًا غيره لحمل البندقية، وبالتالي فإن المحاكمة لا يجب أن تقتصرَ على الفاعل المباشر، إنما كذلك على المحرّض، والغاية منها فقط دفع المثقف الكاذب لتحمُّل مسؤوليته التاريخية الوجدانية ومنع خَلْقِ أمثاله من جديد، علينا أن نحميَ المثقفَ

الحقيقيَّ من هؤلاء الدجالين وإلا صار المجتمعُ غريزيـًا بفقده عقله وضميره المتمثلان بالمثقف الحقيقي.

منذ تطوّرِ المجتمعات كان القانونُ يأتي لتنظيمها ابتداءً من الأعرافِ التي سادت القبيلةَ إلى القانون المكتوب الذي سادَ المدنيةَ وقد أتى لمنع التعدّي والاعتداء وإحقاقـًا للعدل، وفي الحروب كما يُضلَّل الشعبُ كذلك فالقانون يُضلَّل أيضـًا بسبب عنصر القوة والعجلة والانفعال، وكما يحاكَم أو يُكرَّم قادةٌ في الحروب كذلك تحاكَم أو تُكرَّم أصواتُهم (مثقفوهم، شعراؤهم، كُتَّابهم) وجههم الإعلامي ومحفِّز جماهيرهم.

في المأساة السورية كان من أولى الفجائع التي ارتكبتها الثورةُ تطبيقها للمبدأ الإسلامي الشهير (الإسلام يجبُّ ما قبلَه) فاتَّبعت هي مبدأ مماثلًا حيث إنَّ الثورةَ تجبُّ ما قبلَها، فكلُّ خارج عن حُكْم السُّلطة تُفتَحُ له الذراعان لمعانقته أيـًا كان ما اقترفه وهو في كَنَفِ السُّلطة، وليس أدلّ على هذا القول إلا خروج رئيس الوزراء رياض حجاب من كَنَفِ السُّلطة واستقباله استقبالَ الأبطال في المعارضة تحت تغطية ومباركة وتسويق كلّ الوجوه الثقافية والإعلامية، بل واحتلاله موقعـًا تفاوضيـًا ومناصبَ عليا في المعارضة، مَنْ مِنَ المثقفين دعا إلى محاكمته، أو أقلّه إلى التحقيق معه فيما فعلته حكومتُه في البلاد، كذلك الحال مع مراسل قناة المنار والتلفزيون السوري الذي كان مَلَكِيًّا أكثر من الملك في نقل الأخبار، فجأة قرَّر أن يعارض، ويتم تعيينه ليس مراسلاً أو موظفـًا إنما مديراً لقناة

تلفزيونية معارِضة، والأمثلة أكثر من أن تُعَدَّ، وكذلك الحال مع المثقفين الذين باعوا ما كتبوه سابقًا وتولَّوا حقائبَ المسؤولية في مختلف الأجسام السياسية المعارضة فخانوا ما كتبوه وآمنوا به، ألا يستحقون أيضًا محاكمتَهم ليس لخيانتهم لأنفسهم، بل لخيانتهم للحقيقة ولتبرير الجريمة وبيع الوهم للشعب ليُقتَل فينشدون له، وعلى المقلَب الآخَر كذلك كم مِن المثقفين الذين ينبغي محاكمتُهم بتضليل الشعب وخداعه ودفعه إلى الهاوية وتوسعة الهوَّة بينه وبين الخصم الشقيق غايتهم التقرُّب من السُّلطة واستخدام النفوذ للحصول على ما يمكن من منفعة، كم من المحاكمات يجب أن تكون لتردمَ مأساة الملايين أو أقلّه لتُنصِفَ من قضى فيها مخدوعًا مفتونًا بأسماء لقضايا نبيلة لم تكن غير مَطيَّة امتطاها النفعيّون لتحقيق لذّتهم.

هذه المحاكمات لا تعني تعليقَ المشانق، ولا الدعوة لِكَمِّ الأفواه، إنما تعرية هؤلاء الكَذَبَةِ كي يمتنعوا عن العمل بالشأن العام، ويكفُّوا عن العبث بالناس البسطاء، ينبغي كشفُ سلوكياتهم وتناقضاتهم وارتزاقهم إن وُجِد، هذه المحاكمات ينبغي أن تكون معنوية، ينبغي أن تكون محاكماتهم في كشف حقيقتهم وفضح دجلهم لكي يستعيدَ المثقفُ الحقيقيُّ مكانتَه التي سلبوه إيَّاها لكيلا ينتصرَ الوهمُ على الحقيقة.

المصادر والمراجع

1. نصر حامد أبو زيد، (النص – السلطة – الحقيقة)، المركز الثقافي العربي.
2. إدوارد سعيد، الآلهة التي تفشل دائماً، دار التكوين، طبعة 2003.
3. توفيق الحكيم، عودة الوعي، دار مصر للطباعة، الطبعة الثانية.
4. باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفي، دار التنوير، بيروت، طبعة أولى، 2005.
5. ويل ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة الدكتور فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، الطبعة السادسة، 1988.
6. غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، الطبعة الأولى، 1991.
7. فرنسيس بيكون، الأورغانون الجديد، ترجمة عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، طبعة أولى، 2013.
8. رينيه ديكارت، مقال في المنهج، ترجمة محمود الخضيري، دار الكاتب العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، 1968.
9. من التراث إلى الثورة، د طيب تيزيني، الجزء الأول، دار ابن خلدون، الطبعة الأولى.

10. رسالة في التسامح، فولتير، ترجمة هنرييت عبودي، دار بترا للنشر والتوزيع، طبعة أولى، 2009.
11. علي حرب، نقد المثقف، المركز الثقافي العربي.
12. الحماية الدستورية للحقوق والحريات، د. أحمد فتحي سرور، دار الشروق، طبعة ثانية، 2000.
13. مكتوب، باولو كويلو، ترجمة رنا الصيفي، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الأولى، 2010.
14. المثقفون المزيفون، باسكال بونيفاس، ترجمة روز مخلوف، دار ورد، الطبعة الأولى.
15. ت. س إليوت، ملاحظات حول تعريف الثقافة، ترجمة شكري عياد، دار التنوير الأولى، 2014.
16. https://archive. aawsat. com مقال لـ خالد محمود، محتجون يرشقون الوفد السوري المعارض بالبيض، موقع جريدة الشرق الأوسط، 10 نوفمبر 2011، العدد 12035، تاريخ آخر مشاهدة 15/ 8/ 2019.
17. موقع صحيفة تشرين السورية http://tishreen. news. sy.
18. موقع مساواة http://musawasyr. org.
19. موقع karkadan.net مقال بعنوان اللجنة الدستورية والفريق الأممي إلى أين؟، الدكتور هيثم مناع، تاريخ 10/ 9/ 2020.